من سير أعلام حضرموت

المحاسن المجتمعة

في مآثر الأخوة الأربعة

أَحْمَدَ وَمُحَمَّدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعُمَرَ

أَبْنَاءِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بَاذِيب

مع تحقيق أثباتهم وأسانيدهم وبعض مكاتباتهم وتحرير تراجم شيوخهم وجماعة من معاصريهم

من أهل القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين

تأليف

مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد الله باذيب

دار الفتح للدراسات والنشر

القسم الثاني

مكاتباتُ الشيخِ محمدِ بنِ أبي بكر باذيب

مع شيخه العلامةِ الجليلِ الحبيب
عُبيدِ الله بنِ مُحسنِ بنِ علَويٍّ السقاف

تمهيد

هذه ثلاثَ عشرةَ رسالةً تبودِلت بين الشيخ محمد بن أبي بكر باذيب وشيخه العلامة عبيد الله بن مُحسنٍ السقاف[١]، كلُّها مرسَلةٌ من السقاف لتلميذه، وواحدةٌ فقط صدرَتْ من الشيخ باذيب له، توضيحاً ورداً علىٰ بعض الأمور.

كان الحبيبُ عبيدُ الله بنُ مُحسنٍ من ذوي الأقلام السيّالة، وله مفاهيمُ وأساليب كتابيةٌ راقيةٌ جداً، فليست هذه المكاتَبات رسائلَ عادية، كتبها أخٌ لأخيه، أو صاحبٌ لصاحبه، ولكنها شيءٌ أجلُّ من هذا بكثير. . فهي رسائلُ علميةٌ وذوقية، رسائلُ فاخرة، ذاتُ عباراتٍ باهرة، حوَتْ لفوائد ثمينة، لا تقدَّرُ بقيمة، تعبّرُ عن حال رجُلين من أهل الفُهوم العالية، ذوي مشاعرَ هي عن الغِشّ والتدليس خالية، كُتبت بأقلام علماءَ أفاضل، من خِيرة الناسِ ومن أمثل الأماثل.

لا أجدُ الكلام والوصف موفِياً بحقيقة حالها؛ لأنها فوقَ وصفي وتعبيري. . . كفاها أن تكون صدرت من أنفاس الحبيبِ عبيد الله بن مُحسن، ذلك العابد الزاهد الورعِ المُتقي، وقُلْ في وصفه ما شئت، وإن أردت أن

---

(١) اكتفينا عن ترجمته هنا بما قدّمناه عنه في «الثبت».

تعرف المزيد من أحواله فلن تجدَ أبلغ من وصف ابنهِ له، فقد جاء في ترجمته له بما يُحيرُ العقول والأفكار، بما كان عليه من عبادةٍ ومُكابدةٍ للسهر، وكلَفٍ ومحبةٍ للمُجاهَدات والرياضات الروحية، التي تُرقّي الرُّوح وترفعها إلىٰ أعلىٰ مراقيها. وقد تقدمت ترجمته في «ثبَت» الشيخ محمد باذيبٍ أولَ هذا الكتاب.

لقد كان الحبيبُ عبيد الله بن مُحسنٍ من الأولياء المتقين، وهذا أمرٌ يعرِفه ويقرُّ به من عرَف حاله، واطلع علىٰ سيرته. وكان رحمه الله وقدّس سرَّه العزيز، يُسهب في مكاتباتِه بما يقضي لقارئها بالعجب، وبعضُ هذه المكاتبات تستحقُّ أن تكون مؤلَّفاً بحاله[1]، لما حوتْه من مفاهيمَ عزَّ أن توجد مجموعةً في كتابٍ من الكتب؛ لأنها من فيض الخاطر، ومن المدد الإلٰهيِّ الذي يمُدُّ الله تعالى به عبادَه الصالحين.

وقد قيّض الله لهذه المكاتبات ــ أعني مكاتباتِ الحبيب عبيد الله بن مُحسن ــ مَن يجمعها، وهو تلميذه الأخص، السيدُ الحبيب سالم بن حفيظٍ بن الشيخ أبي بكر بن سالم المتوفّى سنة ١٣٧٨هـ، فجمعها في عدة مجلداتٍ كما ذكر ذلك في كتابه «منحة الإلٰه» هي موجودة لدى الكثيرين.

أما هذه المكاتباتُ ــ التي بين أيدينا ــ فقد وجدتها بخط سيدي الشيخ محمد باذيبٍ رحمه الله تعالىٰ، مجموعةً في دشتة، ضَمَّ بعضَها إلىٰ بعض، ولا أظنُّه جمعها علىٰ ترتيبٍ معين، لذا فقد قمت، اجتهاداً مني، بترتيبها تاريخياً حسبَما يرىٰ القارىء الكريم، وبالنظر إلىٰ ما ذُكِرَ فيها من وقائعِ أحوالٍ تقضي

---

(١) كما هو الحال في «الوصية» التي كتبها لتلميذه العلامة الشيخ محمد باكثير السيووني المتوفى بها سنة ١٣٥٥هـ، فقد جاءت هذه «الوصية» في مجلد كامل.

بتقديم إحداها علىٰ الأخرى.

***

ولقد كان الشيخ محمدٌ رحمه الله ضنيناً بهذه المكاتبات، وحريصاً عليها أيَّما حرص، يدُلُّ علىٰ ذلك قوله لمّا ذكَر شيخَه الحبيب عبيد الله في «ثَبَتِه»، وتعرّض لذكر هذه المكاتبات، فقال: «.. وكاتبني بمكاتباتٍ جمعتُها في كراريس، حَداني فيها إلىٰ سلوك طريق العلم والعمل، جمَعَتْ من الفوائد الفرائد، والمواعظ الحسنة، ما لا يوجد في كتاب، فلَهِيَ عندي أشهىٰ من الرحيق، وألذُّ وأعذب من وصْل الصديق، جزاه الله عني خيراً. وقد رزقه الله الفهم في كتابه العزيز». انتهىٰ[١].

وما قاله الشيخ رحمه الله تعالىٰ من الفهم الذي رزقه الحبيبَ عبيد الله سيراه القارىء ماثِلاً للعيان في هذه المكاتبات، فمفاهيمُه مبثوثةٌ في ثناياها وأعطافها، فلْيتأملْها المتأمل.

وأتركُ القارىء يقضي سُويعاتٍ ولحظات، يتأمل في «محاسن» هذه المكاتبات، ويعيدُ النظر ويكررُه في هذه الرسائل المستجادات، فلعله يقف علىٰ فائدةٍ عزيزة المنال، ينفعه الله بها في الدارَين، أو موعظةٍ تأخذ منه بمجامع القلب، فيتعظَ بها، أو غيرِ ذلك مما هو مرادٌ من نشر هذه الرسائل الفاخرة.

ونسأل الله تعالىٰ أن ينفعنا والمسلمين بما نقرأُ ونكتب، وأن يرزقنا الفهم الصحيح، والعمل بما نعلم، إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

***

---

(١) انظر ما تقدّم في «ثبت الشيخ محمد باذيب».

وصف النسخة المعتمدة:

لقد عثرت على النسخة الأصلية من هذه المكاتبات، بعد أن كدت أيأس من الحصول عليها، لاحتمال ضياعها كما قيل لي، ثم تبين لي أن هناك سبباً لاختفائها وبُعدها عن الأعين، لأنها كانت متداولة بأيدي الأجداد، وتناقلوها جيلاً عن جيل، إلى خمسة عقود بعد وفاة صاحبها الشيخ محمد باذيب، ثم لم يُعلم عنها أي خبر إلى يومنا هذا!

وحاصل ما كان من أمرها: أنها كانت في ملك جدي عبدِ الله بن سالم باذيب رحمه الله سبط الشيخ محمد، المتوفى سنة ١٣٨٢هـ، وكان قد أعارها في حياته لابن عم أبيه الشيخ أبي بكر بن أحمد، وتوفي الجدُّ عبدُ الله وهي عنده، ثم توفي الشيخ أبو بكر بعده بخمس سنوات، أي في عام ١٣٨٧، وظلت في بيته ولم تعد لمالكها الأول، ولم تزل ــ منذ ذلك الحين ــ محفوظة في ذلك البيت حتى عثرت عليها في سنة ١٤٢٠، بعد (٣٣) سنة تقريباً، والأهل يظنون أنها قد ضاعت.

فقد وجدتها ــ ولله الحمد والمنة ــ محفوظة في مكان آمن، مرتبة، مما يدل على وضعها في ذلك المكان في وقت قريب، ولما نظرت فيها، عرفت خط كاتبها وهو الشيخ محمد بن أبي بكر نفسه، فعرفت أنها النسخة الأصلية، وأنها هي البغية والمطلوب، فلله جزيل الحمد والشكر.

***

تقع هذه المكاتبات في (٥٥) صفحة من القطع المتوسط، احتوت كل صفحة غالباً على (٢١) سطراً، وفي بعض المواضع (١٨) سطراً.

وعددها (١٢) مكاتبة من الحبيب عُبَيد الله بن محسن، ويضاف إليها

رسالة واحدة من الشيخ محمد ردّاً على إحدى الرسائل، فصار عددها (١٣) رسالة كلها مع الردّ (الجواب).

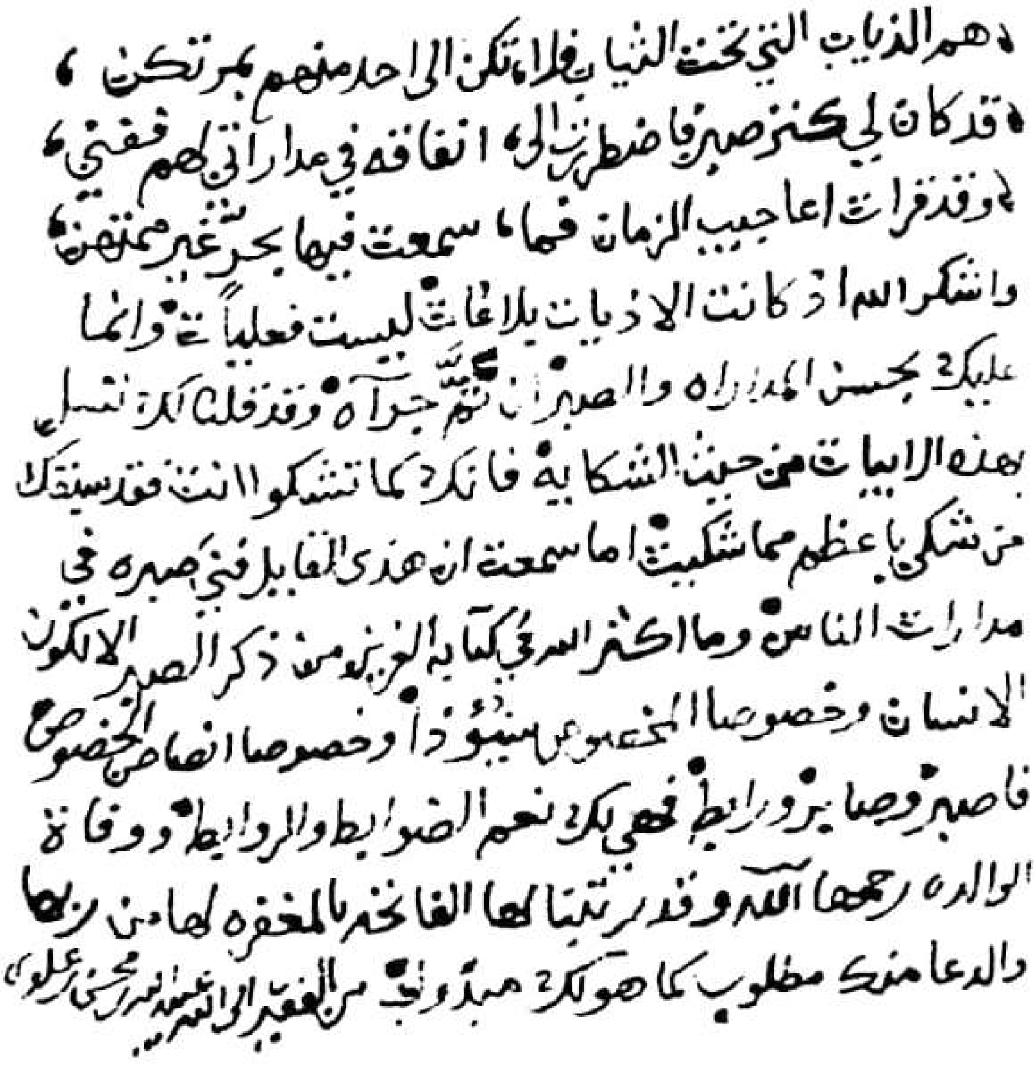
وقد قمت بتحقيق النص، وإيراده مصححاً بقدر الإمكان، واللّهَ أرجو أن ينفع بهذه المكاتبات، وأن يكتب لهذا العمل القبول عنده، إنه أكرم الأكرمين.

❋ ❋ ❋



بسم الله الرحمن الرحيم قال ربنا جل وعلا فيما هو بيننا من كتابه المنزل
إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا الإيمان
المذكور في هذه الآية على مراتب ومن هو بوصفه على مذاهب فإنه
يزيد وينقص ويقوى ويضعف والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف
كما أتى هذا عن صاحب المقام الشريف وله مدارج تنيف يهتدي إليها
كل موفق ظريف سبق أولا أنه من أهل المعرفة والتعريف والإيمان
هذا ما له نهاية ولا غاية بل كلما انكشف للسالك غيب كان مؤمنا
به ارتقى إلى الإيمان بغيب آخر مع إحراز الأول وهكذا والله غيب
الغيب ولا يدرك ولا يحاط وإنما في هذه الدار تقع مشاهدات من صفت
من العبودية وفنيت منه البشرية وما هي إلا تبصرات بواسطة الأسماء
والصفات وأما الذات فهي محتجبة ومن دونها أنوار محرقات تطمس الأبصار
ويدك طور السمع من وقع عليه أنموذج من أنوار تلك التجليات وإنما
العارفون بالله لهم التمتع في رياض جنة المعارف من دخلها لم يشتق إلى
جنة الزخرفات هذه مقالة من سكر بشربه وتاه فخرا بالله حتى وصول
عطشه وإلا ففي جنة النعيم تجليات مضاعفات وإنما لما كانت
مؤجلات وهذه من النعم المعجلات ثم يوم أزهره أعظم العطيات وهيهات
هيهات وفي الدار الآخرة يكون النظر إلى وجه الكبير المتكبر من غير حجابات
لهدى لا تنتهي التجليات كل يوم هو في شأن فسبحانه سبحانه ما أوسع
عطاه وما أعظم علاه وما أحلى ما أبدعه مما أظهره وأخفاه لهدى يرون
أهل مقام الجمعية بالله في ذهول واستغراق في مشاهدات جمالات وجلالات
وكمالات الرب الخلاق حتى إن قائلهم يقول

صورة الصفحة الأولى من المكاتبات


«هم الذيابُ التي تحت الثيابِ فلا تركن الى احدٍ منهم بمرتكنِ»
«قد كان لي كنز صبرٍ فاضطرني الى انفاقه في مداراتي لهم ففني»
«وقد قرأت اعاجيب الزمان فما سمعت فيها بحرٍ غير ممتحنِ»
واشكر الله اذ كانت الاذيات بلاغات ليست فعلياًت وانما
عليك بحسن المداراه والصبر ان تتم جراءه وقد قلنا لك تتسلى
بهذه الابيات من حيث الشكايه فانك كما تشكو انت فقد سبقك
من شكى باعظم مما شكيت اما سمعت ان هذي القبايل فهي جهره في
مدارات الناس وما اكثر الله في كتابه العزيز من ذكر الصبر الا لكون
الانسان وخصوصا المخصوص منهُ ذا وخصوصا انصاص الخصوص
فاصبر وصابر ورابط فهي لك نعم الضوابط والروابط ووفاة
الوالده رحمها الله وقد رتبنا لها الفاتحه بالمغفره لها من ربها
والدعا منك مطلوب كما هو لك مبذول من الفقير الى الله ... محسن علوي

صورة الصفحة الأخيرة من المكاتبات

المكاتبةُ الأولىٰ (١)

«الحمدُ لله، مادِّينَ(٢) إليه أكُفَّ الضراعة، متوسلينَ ـ في طلباتنا: الحِسّيةِ والمعنوية ـ بصاحب الشفاعة ﷺ، في أن يُنيلَنا المولىٰ كل نَفاعة، أن تكون أيامُنا ولياليَنا مُزَجّاةً(٣) في الطاعة، سالمةً من الإهمالِ والإضاعة. والصلاةُ والسلام علىٰ سيّدِنا محمدٍ القائل: «بُعِثْتُ أنا والساعة..»(٤)، وعلىٰ آلِه وصحبِه كرامِ الأصلِ ورِفاعَهْ.

ثم علىٰ مُحبِّنا، ومحبوبِ قلوبنا وقوالبنا، الأخِ الصادق، سلمانِ أهل البيت، ودِهانِ ذلك الزيت، المترقي للخيرات، والطالبِ لما به السعادات والزيادات، محمدِ بن أبي بكرٍ باذيب، تعود تحياتي، وأخصُّ دعَواتي، في خَلَواتي وجلَواتي، بانتهاضِ الهمّةِ القوية، والعزْمةِ في اقتناصِ العلوم التي بها تُنالُ الرتبُ العلية، في المقاعد الصِّدْقيةِ العِنْديةِ العِرفانية.

---

(١) كتبت في سنة ١٣١٤؛ لأن فيها ذكراً للحبيب عيدروس بن عمرَ وهو على قيد الحياة، وقد توفي في رجب ١٣١٤.

(٢) تعرب حالاً، أي: نحمد الله تعالىٰ حالَ كونِنا مادِّينَ أكُفَّ.. إلخ.

(٣) أي: مُدافَعة، يقال: زجّىٰ الشيءَ تزجيةً: دفعه برفق.

(٤) تمام الحديث: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وأشار بأصبعيه: السبابة والإبهام، رواه البخاري (٤٦٥٢)، ومسلمٌ (٨٦٧).

فإنّ بالهِمَم، المتنوعةِ بنقْلِ القدم، فيما به يُعزُّ المرءُ ويُكرَم، هنا وثَمّ، تحصلُ البركاتُ: الحِسّيةُ والمعنوية، الظاهراتُ منها والخفيّات، فالسعيدُ من العبيدِ مَن ألقىٰ السمْعَ وهُو شهيد، فزيّنَ ظاهرَه وباطنَه بتقوىٰ الحميدِ المجيد، فلا حِرفةَ أعزُّ للمؤمنِ من التقوىٰ، سرَّه والنَّجوىٰ، وإذا كمُلَت صَيَّرتِ المُباحاتِ عبادات، وما ظاهِرُه الدنيا قُرُباتِ مُوصلاتٍ إلىٰ رضا ربِّ الأرضِ والسماوات، الله يرزقُنا ومحبِّنا ـ المعنيَّ بهذا ـ خاصَّها وعامَّها، مُجمَلَها ومفَصَّلَها.

فإنها إذا حصلَتْ للعبدِ فما فاته شيء، بل أدركَ كلَّ كرامةٍ من الكريم الحيّ، فدُمْ ـ يا مُحبّي ـ بوصفِها ونعتِها، وعَضَّ عليها بالنواجِذ، تُدرِكْ لبُغيتِها، فعلىٰ البابِ علىٰ الدوام فقِفْ، وبذلك النادي فاعتكِفْ، وبالفقرِ إلىٰ المولىٰ فاتَّصفْ، وبالقُصُورِ فاعترفْ، فبذلك مِن بحار النورِ والحكمةِ تغترف، وعلىٰ منازلِ من تهوىٰ تُشرِف. وحينَئذٍ ترىٰ ما ليس في بالك، ولا كان في خيالك، مما لا يُعبَّر، ولا يسطَّر، ولا يُذكَر، ولا يُنشَر.

ولا تقل: لستُ أنا هنالك! فإنّ من جدّ وصدق، وتخلَّقَ بذلك وتحقَّق، فهو علىٰ الله الكريم الموفِّق، و«**لا فضلَ لأسودَ علىٰ أبيضَ إلا بالتقوىٰ**»(١). والآدمِيّةُ قابلةٌ لِمَا يُلقىٰ فيها إذا كانتِ الفِطرةُ طيّبةً نقية، الله يعطينا حسَنَ الهِبات، هنا وفي الآت.

صدرَتْ هذه الأحرفُ والفقيرُ ومَن لاذَ به، وسيدُنا عظيمُ الحال، عذبُ المقال، وزيْنُ الفِعال، صاحبُ القَطَابة، القائمُ في مِنبرِ الخَطَابة، الوالدُ الأبرّ،

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٥٣٦) بسندٍ رجاله رجال الصحيح، قاله الهيثمي في «المجمع»: (٣: ٢٦٦).

عيدروسُ بنُ عمر[١]، بأتمِّ العافية، المرجوُّ أنكم ومَن لاذَ بكم من حبايِبَ ومُحبِّينَ كذلك.

الداعي لكم والطالبُ منكم

عبيدُ الله مُحسنُ بنُ علَويٍّ السقاف».

* * *

(١) يعني به الإمام الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي، شيخَ الكاتب والمكتوب إليه، تُنظَر ترجمته في «الثبت» ضمن هذا الكتاب.

المكاتبةُ الثانية

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال ربُّنا جلَّ وعلا، فيما هو بَيِّنٌ مِن كتابه يُتلىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، الإيمانُ المذكورُ في هذه الآيةِ علىٰ مراتب، ومن هم بوصْفِه علىٰ مذاهب.

فإنّه يزيدُ وينقص، ويقوىٰ ويضعُف[١]، و«المؤمنُ القويُّ خيرٌ منَ المؤمنِ الضعيفِ»[٢]، كما أتىٰ هذا عن صاحبِ المقام الشريف، وله مدارجُ[٣] تِنيف، يُهدَىٰ إليها كلُّ موفَّقٍ ظريف، سبَقَ أولاً أنه من أهل المعرفةِ والتعريف.

والإيمانُ هذا ما له نهايةٌ ولا غاية، بل كلَّما انكشف للسالك غيْبٌ كان مؤمناً به، ارتقىٰ إلىٰ الإيمان بغيبٍ آخرَ معَ إحرازِ الأوَّل، وهكذا.

واللّهُ غيْبُ الغيب، ولا يُدرَكُ ولا يُخيَّل، وإنما في هذه الدارِ تقعُ مُشاهَداتٌ ممن صَفَتْ منه العبودية، وفَنِيتْ منه البشرية، وما هي إلا

---

(١) وهذا ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: إنه لا يزيد ولا ينقص.

(٢) رواه مسلمٌ من حديث أبي هريرة (٢٦٦٤).

(٣) أي: مراتب.

بَصِيرات(١)، بواسطةِ الأسماءِ والصفات.

وأمّا الذاتُ فهي محتجبة، ومن دونها أنوارٌ مُحرِقات، تَطمِسُ الأبصار، ويُدَكُّ طُورُ السمعِ ممَّنْ وقَعَ عليه أُنموذجٌ من أنوارِ تلك التجلّيات.

وإنما العارفونَ بالله لهمُ التمتّعُ في رياضِ جنة المعارف، مَن دخلها لم يشتَقْ إلىٰ جنةِ التعرُّفات(٢)، هـذه مقالـةُ مَن سَكِرَ بشُربه، وتاه فخراً بالله حين وصول عطيّتِه، وإلا ففي جنةِ التمتعاتِ(٣) تجلياتٌ مضاعفات.

وإنما لمّا كانت(٤) مؤجّلات، وهذه من النِّعم المستعجَلات.. توهَّمَ أنّ هذه أعظمُ العطِيّات، وهيهاتَ هيهات. وفي الدارِ الآخرة يكونُ النظرُ إلىٰ وجهِ الكبيرِ المكبَّرِ من غير إحاطات، لهذا لا تنتهي التجلّيات، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فسبحانَه سبحانَه، ما أوسعَ عطاه! وما أعظمَ عُلاه! وما أجلَّ ما أبدَعَه مما أظهَرَه وأخفاه!

لهـذا، يُرَوْنَ أهـلُ مقامِ الجمعيـّةِ(٥) بالله فـي ذهـولٍ واستغـراق، في

---

(١) البصيرة: قوة القلب المنوَّر بنور القدس، ترىٰ حقائق الأشياء وبواطنها، بمثابة البصر للنفس، «التوقيف»: (١٣٣).

(٢) والفرق بين المعارف والتعرفات: أن المعارف جمع معرفة، وهي: إدراك الشيء علىٰ ما هو عليه وبدون اختيار، كما في وقوع بصر الإنسان على شيء بدون اختياره، فإنه يحصل له معرفة المبصر بأنه حجر أو مدر أو غير ذلك، فهي تحصل بسابق معلومة عن الشيء الذي وقعت عليه. وأما التعرف فيدل علىٰ طلب المعرفة، أي: أنها لمّا تحصلْ بعد، والله أعلم.

(٣) جنة التمتعات: هي الجنة الحقيقية التي يخلُد فيها المؤمنون، وهذه هي ثالث الجِنان التي ذُكرت هنا، واللتان سبق الكلام عنهما ذُكِرتا في مقام المجاز.

(٤) أي: جنتا المعارف والتعرفات.

(٥) الجمعية: اجتماع الهمم في التوجه إلىٰ الله، والاشتغال به عما سواه.

مُشاهَـداتِ جمالاتِ وجَلالاتِ وكمالاتِ الربِّ الخلاق، حتىٰ أن قائلَهم[١] يقول:

يا ليتَني قد غِبتُ عن هذا الوَرىٰ ودُعِيتُ بالمُستغرِقِ المبْهوتِ
مـاذا علـيَّ مـنَ الأنـامِ وقـولِهـم إنْ أُدْعَ بالمحبوبْ أوِ الممقوتِ

فمقامُ الفَنَاء[٢] هذا فيه لهم كلُّ الغَنَاء[٣]، بل وكلُّ العناء، لهذا لمّا سُمِع بعضُهم يُنشِد بقوله:

سبحانَ مَن خلَقَ السماءْ إنّ المُحِـبَّ لَفِـي عَنـاءْ

فأقرّه علىٰ ما قال، وتعرّف منه كبيرَ معنىٰ. ثم سَمِعه ثانياً ينشِده، فقال: لا تقل هكذا، بل قل: إنّ المُحِبَّ لَفي غَنَاء، بالغين المُعجَمة. فأوّلاً: كان هذا ضعيفَ الحال، ثم قَوِيَ علىٰ مشهدِ الجمال، فقال ما قال.

والعارفونَ يشتاقونَ إلىٰ هذا المقام؛ لأنّ فيه لهم سُلواً[٤] عن الأنام، وروْحَنةً بُمجالسةِ ذي الجَلالِ والإكرام، في المقاعدِ الصِّدقيةِ العِنْديةِ الفِخام العِظـام، وإنمـا المولىٰ يُنقِّلُهم من هذا المقامِ[٥] إلىٰ مقامِ البقـاء، لطفاً بهم وبالعباد، لِيدعوَهم إلىٰ طريقِ الرشاد.

---

(١) وهو الإمام الحداد، من قصيدةٍ له، مطلِعُها:

الله لا تشهَدْ سِواهُ ولا تَرىٰ إلاّهُ في مُلكٍ وفي ملَكوتِ

«الديوان»: (١٠١).

(٢) تقدم الكلام علىٰ هذا المقام في «تتمة التراجمِ» ضمنَ هذا الكتاب.

(٣) أي: الاستغناء.

(٤) السلوّ: انكشاف الهم من القلب.

(٥) أي: من مقام الفناء.

قال قائلُهم(١) في هذا المقام:

وإن أبقـىٰ بـهِ بعـدَ التفـانـي   فيا بُشرايَ ما أوفىٰ نصيبي

فانظُـرْ يا من يفهَم ويغوصُ في معاني الكلام: نثرِه والنِّظـام! والقائلُ الأولُ والثاني هو: قطبُ الإرشاد، سيدُنا عبدُ الله الحداد، الخائضُ في بحورِ الكمالات، الحاملُ لجواهرِها المستجادات، فرضِيَ الله عنه وأرضاه، وجعلنا مِن حزبِه وحزبِ مثلِه، هنا وفي الآخرة.

***

فإبراهيميُّ(٢) الحالِ والمقامِ لا يرضىٰ من الإيمان بأقلِّه، ولا يجمُدُ معَ ظاهـرِ العلمِ ونَقْلِه، بل مَن كان فتًى كسَّـرَ أصنامَ النفس(٣)، وارتقىٰ مِن رؤيةِ الكوكبِ ثم القمرِ إلىٰ الشمس(٤)، ثم منها إلىٰ ربِّ الشمس، وهذه الأنوارُ ليست هي علىٰ ظاهرِها، وإنما هي عبارةٌ عن ترَقِّيه.

فأولاً رأىٰ نـورَ الطَّيـف(٥) كي تقـوىٰ عليه قُواه، ثم ما هو أكبرُ منه، ثم

---

(١) هو الإمام الحداد، من قصيدةٍ له مطلعُها:

ألا يـا نـازِليـنَ علـىٰ الكَثيـبِ   منَ الوادي على المرعىٰ الخَصيبِ

«الديوان»: (٥٧).

(٢) أي: المنسوبُ إلىٰ إبراهيمَ الخليل عليه السلام، والمراد مَن هو في مقامه، وهو مقام الشهود لله تعالىٰ.

(٣) إشارةً إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ . . .﴾ [الصافات: ٩٣ وما بعدها].

(٤) إشارةً إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٨].

(٥) الطيف: هو خيال الشيء المُترائي، في المنام أو اليقظة.

ما هـو أعظـمُ منه وأوسع، وهذه أنوارُ خفائه. ومعنى «أفولها»: تغطيتُها عن نظَرِه رفقاً به، وليتعرَّفَ مدارجَ الترقيات، وهي عبارةٌ عن: الإسلامِ والإيمانِ والإحسان.

***

وأيضاً إبراهيميُّ الحالِ لا يرضىٰ بالأثَـر[1]، والنجمِ والشمسِ والقمر، بل يقول: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، وما هي إلا دِلالاتٌ وعِبر، يُعبرُ منها إلىٰ ما هـو أجـلُّ وأفخـر، وقال أيضاً: ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾، قال له المولـىٰ: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ؟﴾ ــ من الإيمـان الكامـل ــ قال: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فقصَّ الله مِن أمرِه ما قصَّ، وعمَّم وخصَّص.

وما قـصَّ ربُّنا حكايـاتِ الأنبيـاء إلا لِيدُلَّنـا علـىٰ التأسِّـي والاقتداء، ويُرشدَنا، قال الله لنبيِّه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، يعنـي: بالهـدىٰ اقتَدِ لا بهـم، فإنهم كلُّهم في تبعيتِـه، وخُلقـوا من حقيقتـه. وقولُه: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ أنّ في ذاتِ نبيِّنا وُسْعاً لأن يهتـدي بهـم بهداهـم كلِّهم! فما أعظمَ هذا الرسولَ الذي هو التعيُّنُ[2] الأول! وهو للكل طريقُ معرفةِ الوصول إلىٰ الربِّ الوَصُول.

فمقاماتُ مَن عداه من الأنبياء مِن فيضِ بحره، ومن تجلِّيات نورِه، ومن مِشكاةِ صدرِه، ومَن تبِعه من أُمته، فيقال: هذا منهم إبراهيميُّ الحال، وهذا داوديّ، وهذا سُليمانيّ، وهكذا، وما هناك إلا السرُّ المصطَفَويّ.

---

(١) وهو العرَض الزائل.

(٢) التعييـن والتعيُّـن: ما بـه يمتـاز الشـيء عن غيـره، بحيث لا يشاركـه فيه غيـره، «التوقيف»: (١٩٠).

وطائفةٌ يقال لهم: «المُحمّديُون»، هم أكرَمُ الناس، لكونهم علىٰ تَبعيّتِه وتحتَ إشارتِه وبسِرِّه متحققون، ولهم خصوصيةٌ علىٰ غيرهم بها يُعرَفون، ذلك كلُّه من سرِّ الإيمان.

وأمّا العملُ الصالح المذكورُ في الآية، فأنواعه وطرُقُه لا تخفىٰ وغير منحصرة، إذِ الطرقُ إلىٰ الله علىٰ عدَدِ أنفاس الخلائق. والعملُ يكون تارةً بالأركان، وتارةً بالجَنان. وعملُ الأركانِ يضِيقُ بتضايُقِ الزمان.

وأما عملُ القلوب، وسيرُها وسفرُها إلىٰ علّام الغيوب، فشيءٌ لا يقال، ولا يحكيه مقال؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] معناه ــ من حيثُ الإشارة ــ: من يقلِبُ الأعيانَ ويردُّ كثائفَها لطائف، وتكون كلُّ الأعيانِ فرداً فرداً كالكعبةِ هو بها طائف، يستخرجُ منها المعارف، إذ كلُّ ذرةٍ من الوجود هي اسمٌ من أسماءِ خفيِّ اللطائف. والقلبُ إذ قد وسِعَ الرب[1] فالأكوانُ كلُّها تكون في زاويةٍ من زواياه.

والإنسانُ الذي هو الإنسان، هو المَقُولُ فيه: «إن الله خلَقَ آدمَ علىٰ صورتِه»[2] يعني: صورتَه المعنوية، من كونه ذا سمع، وإبصار، وعِلم،

---

(١) في هذا إشارةٌ إلىٰ أثرٍ يُروىٰ علىٰ أنه حديث قدسيّ: «ما وَسِعَني أرضي ولا سمائي، إنما وَسِعَني قلبُ عبدي المؤمن»، قال الحافظ العراقي: لم أرَ له أصلاً، وقال ابن تيميةَ رحمه الله: هو مذكورٌ في الإسرائيليات، وليس له إسنادٌ معروفٌ إلىٰ النبيّ ﷺ، ومعناه: وسع قلبَه الإيمانُ بي ومحبتي ومعرفتي، وإلا فمَن قال: إن الله يحلُّ في قلوب الناس فهو أكفرُ من النصارىٰ.
وعندَ الطبرانيِّ من حديث أبي عُتبةَ الخولانيِّ رفَعَه: «إنّ لله آنيةً مِن أهلِ الأرض، وآنيةُ ربّكم قلوبُ عبادِه الصالحين، وأحَبُّها إليه أليَنُها وأرقُّها»، «كشف الخفاء»: (٢: ٢٧٣).

(٢) الحديث في «صحيح مسلم» (٢٦١٢) في كتاب (البر والصلة)، وتمامه: «إذا قاتَلَ =

وقـدرة، واختيـارٍ من تحـت الاختيـار، فهـو علىٰ هذا فيه صفاتٌ من صفاتِ القهّار، علىٰ حدٍّ واعتبار، إذ هو محلُّ تجلّيه، وأخصُّ مَن خلق وقد طوىٰ سرَّه فيه:

أتحسَـبُ أنـك جِـرمٌ صغيـرٌ   وفيكَ انطوىٰ العالَمُ الأكبرُ

فالإنسانُ الملحوظُ هو عرشُ الرحمن، وهو المتخلِّقُ بأخلاقِه في كـلِّ آن، فمـا مِنَ اسمٍ من أسمـاء الله إلا ومخصوصُـه له به تعلُّقٌ وتحققٌ وتخلُّـقٌ وتعبُّد.

فالعارفُ من الرجال سِرُّه كبير، وشأنُه خطير، ومَن أراد أن يعرِفَ هذه المعاني، فيفهَمَ أخْذَها من المباني، وخصوصاً حديث: «ما تقَرَّبَ المُتقرِّبونَ إليَّ بمثْلِ أداءِ ما افترَضْتُ عليهم، ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتىٰ أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سمْعَه الذي يسمَعُ به، وبصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يبطِشُ بها، ولسانَه التي ينطِقُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها..»[1] إلىٰ آخرِه، فبهذا يعرِفُ المتأمِّلُ عظيمَ المعنىٰ.

= أحدُكم أخاه فلْيجتَنِبِ الوجه، فإنّ الله خلَقَ آدمَ علىٰ صورتِه». قال الإمامُ النوويُّ في «شرحـه»: «فهـو من أحاديـث الصفـات.. ومن العلماء من يُمسِـكُ عـن تأويلها، ويقول: نؤمنُ بأنها حق، وأن ظاهرَها غيرُ مرادٍ ولها معنًى يَليقُ بها، وهذا مذهبُ جمهور السلف، وهو أحوط وأسلم. والثاني: أنها تتأوَّلُ علىٰ حسَبِ ما يَليقُ بتنزيه الله تعـالىٰ». ثم قال: «واختلـف العلمـاء في تأويلـه، فقـالت طائفـة: الضميـرُ في «صورته» عائدٌ علىٰ الأخ المضروب، وهذا ظاهر رواية مسلم. وقالت طائفة: يعود إلىٰ آدم، وفيه ضعف. وقالت طائفة: يعود إلىٰ الله تعالىٰ، ويكون المراد: إضافةَ تشـريفٍ واختصـاص، كقولـه تعـالىٰ: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وكما يقال في الكعبة: بيتُ الله، ونظائرِه». انتهىٰ.

(١) رواه البخاريُّ في «صحيحه» (٦٥٠٣).

وقُربُ هذا العارفِ من ربّه ومنزلـه الإدناء. فمن كان علىٰ صورةِ الحقِّ المعنويـة، فأحوالُه ومقاماتـه عليّـة، وأسرارُه العرفانيةُ خفِيةٌ وجلِية، وما هو مخصوصٌ به لا يعرَّفُ ولا يُكيَّـف، ولا في الأوراقِ يوصَف، ولا تُفيدُ في بَثّه إشارة، ولا تفي بتقريبِ فهمِه؛ لأنه من قَبيلِ المعاني، لا يعرِفُهُما إلا مَن حصلَتْ له، ونزلت مَحلَّه.

* * *

وكلُّ ذلك من برَكاتِ ثمراتِ الأعمال الصالحة، والمُتاجَراتِ الرابحة؛ لأن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فإن قيل: ما السبلُ هذه المُهدَىٰ إليها هذا المجاهِد؟

فنقـول: هي مختلفـة، وهـي علىٰ حَسَبِهـا، بعملِ القاصدِ إلىٰ حضرة الأجلِّ الواحد.

فبعضُهم يكـون له التعلُّـقُ باسمٍ من الأسمـاء، ويُفتَـحُ لـه علىٰ حَسَبِه، وبعضُهم له الاسمان، والثلاثة، وهكذا.

وبعضُهم تُقابلُه الأسماءُ كلُّها: التسعـةُ والتسعون، من كلِّ الجهات ولا جهات، وهو ينظُرُها من كلِّ الجهات، ولا جهاتٍ، كما ذكَرْنا.

وهذا لا يكونُ له تصريف؛ لأنه تتَمانَـعُ عندَه الأسماءُ جلالاً وجمالاً. وأمّا مَن عداه فيكون له ذلك؛ لأنه يكون إمّا بمشهدِ جلال، أو بمشهدِ جمال، فلا تمانُـعَ عنـدَه، وأمّا مَن ظاهَرَتْـهُ كلُّهـا فهو يشهـدُ الكمال، فيُحجِمُ عن التصريف، إلا إنِ استترَ عنه المانع، فيكونُ منه ذلك، وكلُّ ذلك بإذن المالك.

والتصريـفُ المذكـورُ لا يكـون إلا ممـن زَهِـد في الكـرامات. وإلا فإبراهيميُّ الحال، لا يكـون نظَـرُه إلىٰ الوسائـط، بـل إلىٰ ذي الجَـلال،

فإنه[١] قال لمّا أُلقِيَ في النار، وعرَضَ له جبريلُ قائلاً: ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا، وحاجتي أعلَمُ بها المولىٰ.

وهذا[٢] لا يناقض ـ عندنا ـ ندْبَ الدعاء[٣]، بل هو مندوبٌ إليه علىٰ جهةِ الافتقار إلىٰ الكريم الغفار، لا بمعنىٰ أنّ الحاجاتِ تكون به، بل ذلك إلىٰ مَن له التدبيرُ لأمرِنا والاختيار.

فالدعاءُ مندوبٌ إليه، والعبدُ عليه أن يطرَحَ أثقالَه علىٰ الله ولا يختار، فربما واختيارُه له فيه الدمار، فيسألُ الله العافيةَ من حيثُ كونُها عافية، وكذلك كلُّ أمورِه: الظاهرةُ والخافية، إذا طلب تحصيلَها، أو دفْعَها، فتكونُ بهذه المثابة، يُسلِّمُ أمرَها لمالكِها، فمنه مصدَرُ ما يلائم منها، وما لا فهو الذي يغلق بابَه، فما الدعاءُ جلْباً أو دفْعاً إلا بمخضِ عُبوديتِه، وافتقارٌ إلىٰ مَن كلُّ شيءٍ عندَه بمقدار.

***

قال سيدُنا الحدّاد:

فدعائي وابتهالي ... شاهدٌ لي بافتقاري
فلهذا السرِّ أدعو ... في يَساري وعَساري[٤]

والعارفُ فقيرٌ علىٰ الدوام، فقيرُ حال، وذوق، ووجدان، ومعرفة، وإيقان، وإلا فالكلُّ فقيرٌ إليه دنيا وآخرىٰ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى

---

(١) أي: إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.
(٢) أي: قولُ الخليل عليه السلام الآنفُ الذكر.
(٣) لأنه مندوب إليه شرعاً، قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].
(٤) «الديوان»: (٢٥٦).

ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

لِينظُرِ التالي، كيف قال الإلٰهُ الوالي في نسبةِ الفقر إلىٰ اسم «الله»، الذي له الهيمنةُ علىٰ كلِّ الأسماء، فكأنه قال: أنتم الفقراءُ إلىٰ كل اسمٍ من أسماءِ الله! فمن تأمَّلَ القرآنَ وهو من أهلِ العِرفان، عرَفَ معانيَه الحِسان، ومبانيَه، المُطرِبةَ لتاليه، إذا هو يتلوه بأدبٍ وافرٍ وإتقان.

***

وإذ قد أشرنا أنّ الإنسان ــ فيما سبق ــ هذا صغيرُ الجِرم، فهو مختصَرُ العالَمِ الأكبر، ففيه ــ علىٰ صِغَر حجمِه ــ ما في العالَمِ الأكبر، يعرِفُ هذا مَن سِرُّه منوَّر، وقلبُه مطهَّر، مِن كلِّ قذر.

بل هذا الجرمُ الصغيرُ زاد علىٰ الأكبر، إذ معناه كبير، إذ هو وَسِعَ ــ مع صِغَرِه ــ الكبيرَ الجليلَ القدير، وحمل الأمانة التي أبتْ مِن حمْلِها السمواتُ والأرض، طولُها والعرض، وإن كان ظَلوماً جَهولاً في ظاهر الأمر، فهو في باطنِه مظلومٌ ومجهول، اسما مفعول، ومعناه: مظلوماً مجهولاً، لا ظالماً جاهلاً!

***

فما أعظَمَ قدْرَ وشأنَ الإنسان، إذ صَلُحَ لِمَا يُرادُ به [من] مجالسةِ الرحمن[1]، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] رُوحاً مجردة، ذاتَ معرفةٍ بنا، موحِّدةً لنا، ومُفرِدة.

---

(١) إشارةً إلىٰ الحديث القُدسي: «أنا جَليسُ مَن ذكَرني»، رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٨٠) و(٧٠٩)، ونحوُه عند أبي الشيخ في «الثواب»، «كشف الخفاء»: (١: ٢٣٢).

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [التين: ٥]، هذا الجسم، مع كثافتِه بالعناصر[١] المختلفة، الغيرِ مؤتلفة، حكمةٌ حكَمَ بها ربُّ العالمين.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، معناه: لكنِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٦]. وهو: أن يرجِعوا بالمُجاهَداتِ[٢] والرياضات[٣] إلىٰ وصْفِهمُ الأول، وذلك الرُّوحُ المجردة.

فمَن خلَقَ الله فيه قوةً من قوتِه، رجَعَ مِن غُربتِه، بعدَ بُعْدِ سفْرتِه، إلىٰ وطنه وحقيقةِ أصليّتِه، إذِ الأركانُ علىٰ معانٍ، و«حبُّ الوطنِ منَ الإيمان»[٤].

فالموفَّقُ المراد، إذا عقَلَ الأمرَ بإلهامٍ من الكريم الهاد، رجَعَ إلىٰ ذلك المَعاد، بقصْدِ تلطيفِ بشريته بكثرةِ الجهاد والجِلاد، فإذا رجَعَ من غُربته، بعدَ طول غيبتِه، كانت رُوحُه أتمَّ مما كانت، وطابتْ وزانت؛ لأنها لَمّا صاحبَتِ الجسم، اكتَسَبتْ بواسطتِه أموراً حصلَتْ عليها، لأنها بفروعِ التكاليفِ قامتْ في الجسم. من هذه الحيثية تُمدَح؛ لأنه ظرفٌ لهذه الروح، لولاه ما كانت بهذا المصطلح.

---

(١) العناصر: جمع عنصر، وهو: الأصل الذي تتألف منه الأجسام المختلفة الطبائع.

(٢) المجاهَدات: محاربة النفس الأمّارة بالسوء، بتحميلها ما يشُقُّ عليها، مما هو مطلوبٌ في الشرع، «التوقيف»: (٦٣٨).

(٣) الرياضات: هي كثرة استعمال النفس والبدن ليسلُسَ ويمهَر، واستُعيرت لتهذيب الأخلاق النفسية، فإن تهذيبها: تمحيصُها عن خَلطات الطبع ونزَعاته.

(٤) مقولةٌ معروفة، والبعض يجعلها حديثاً نبوياً، قال الحافظ السخاوي: لم أقفْ عليه ومعناه صحيح، وقال الصغاني: موضوع، أي: بالقول بنسبته ورفعه إلىٰ النبيِّ ﷺ، ينظر «كشف الخفاء»: (١: ٤١٣).

فسبحانَ مَن فتحَ قلوباً وشرَح، ووَهبَها عطاياه ومنَح، وسبحانَ من مَنَعَ أخرىٰ وعليها لم يفتَح، وما الأمرُ يدور إلا علىٰ صِفتَيِ العدل والفضل، ولله الأمر من بعدُ ومن قبل.

***

وإذ قد ذكَرْنا أن هذه النسخةَ الآدَمِيّة، مختصرُ الأكوانِ العلوية والسفلية.. فهي أيضاً حاويةٌ لما قُدِّر لها أزَلاً من العلوم: النقْلية والعقلية، فهي مكتوبةٌ في لوْحِ قلبِ مَن له شيءٌ منها. فالعلم للغير ــ قرآناً أو غيرَه من سائر العلوم ــ لا يُقال: إنه أفاده فائدةً من عندِ نفسه لم تكن عند ذلك المتعلِّم، كلا! بل هو إنما نشَرَ له مرقُومَه، الذي علومُه فيه معلومة.

فالمعلّمُ له المِنّةُ علىٰ المتعلم، من حيث إظهارُه العلمَ الذي هو مكتوبٌ في دفترِ قلبه لا غير، وعلامةُ ذلك: أنّ مَن ليست هذه الكتابةُ في لوْحِ قلبِه لم يُفِدْ فيه تعليمُ معلِّم، ولا تفهيمُ مُفهِّم! وهذا بابٌ واسع، وفيه أغوارٌ وأنجاد، وعليه يدورُ أمْرُ العباد.

وأيضاً، ممّا يدُلُّ علىٰ صحّة هذا المعنىٰ قولُ المولىٰ جلَّ وعلا في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وقولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

ففي القرآنِ من هذا النوعِ كثير. لِينظُرِ المتأملُ المتدبِّر أنّ الذكْرَ والذِّكْرىٰ لا تكون إلا ممّن عندَه بهما معرفة، ثم كأنه نَسِي، فقيَّض الله له المعلمَ فذكَّرَه ذلك.

فما أعظَمَ عبارةَ القرآن! حيث نبَّهَنا علىٰ هذه المعاني الحِسان، وبالتذكرِ يحصُلُ التذكير، وبالفِكْرِ الصّافي يكون التأثير، وإنّما الحجاب[١] إذا كَثُفَ

(١) الحجاب: كل ما ستَر المطلوب، أو منَع من الوصول إليه، «التوقيف»: (٢٦٨).

منَع، وكذلك يصنَعُ الطَّبَع[١]، والمهْديُّ يبعَثُ ما عندَه؛ لأنه وإن لم يُلهَمْ ما هو مجعولٌ في صدره من العلم، علّمه إياهُ أو غيرَه.

وسبحانَ الحكيم، الباعثِ لهذا علىٰ التعلم والتعليم، وسبحانَ المانع للآخرِ بوصْفِ العديم، وهذا مُفرَدٌ في جميع الحرَكات والسَّكَنات، فلا يتحرّكُ متحرِّكٌ ولا يسكُنُ ساكنٌ إلا وقد سبَقَ تقديرُه وتيسيره، وله أوقاتٌ فيها يظهَر، كما هو مأخوذٌ من الآياتِ والخبَرِ عن خير البشر ﷺ.

والمفتوحُ عليه[٢] إذا شرَع في بحث، ظهَرَ له من نفْسِ هذا البحثِ آخَرُ، وهكذا.. ولا ينتهي ما في الصدر، ولا يقدِرُ صاحبُه أن يُمليه في السطر[٣]، ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ ﴾ [الكهف: ١٠٩].

وهذا مما تجاسَرْنا في الكلامِ عليه، والإيماءِ إليه، ولكنّه لمّا كان به فتحُ بابٍ كبير، يسلُكُه مَن حالُه كبير، ولا يحصُلُ إلا بالتذكير، قلنا: لعلَّ ذلك ممّا البحثُ فيه، فإذا طالعَ هذا مُطالعٌ أظهَرَ خافيه، كما وقع عليه التنبيه.

* * *

---

(١) الطبع: الجبلّة التي خُلق الإنسان عليها، وعند الصوفية: ما سبق به العلمُ في حق كل شيء. والطَّبَع، بفتحتين: الختم والغطاءالدنس، ومنه قول ثابتِ قُطنة:

لا خيرَ في طمَع يدني إلىٰ طبَع | وغُفّةٌ من قِوام العيشِ تكفيني

(٢) الفتح هو: إزالة الانغلاق والإشكال، وهو ضربان: ما يُدرَك بالبصر، كفتح الباب ونحوه. والثاني: ما يُدرَك بالبصيرة، كفتح الفهم. ومنه: فتح المستغلِق من العلوم. فيقال: فلانٌ فُتح عليه بابٌ من العلم، «التوقيف»: (٥٥٠) بتصرّف. والمفتوح عليه: مَن أُكرم بإزالة الحجاب العائق له عن الفهم والتلقي.

(٣) وكأن الحبيب عبيدَ الله ــ بهذا الكلام ــ يعني نفسه؛ لأنه يصدُقُ عليه هذا الحال، والله أعلم.

وقد طال البحثُ في هذا المقام، لطُغيانِ الأقلام، وتموُّجِ المُذاكرةِ في الصدر، ولا هناك مُتَلَقٍّ لها من خاصة الأنام، لهذا الفقيرُ يُطِيل الخطابَ في الكتاب، ويُحسُّ تروُّحاً إذا خرج، فالله يجعلُه صواب، وينفَعُ به الأصحابَ والأحباب.

ونسألُه أن يرزقَنا الصّدقَ والإخلاص، وإن يجعلَنا ومَن نُشيرُ إليه بهذا الخطابِ من ذوي الاختصاص، ومِن خواصِّ الخواصّ، اللهُمَّ آمينَ يا ربَّ العالمين.

***

ثم إن الفردوسَ في الآيةِ الكريمة[١]: وقوعُ السالكِ[٢] المُجدِّ المريدِ المرادِ[٣]، المُحِبِّ المَحبُوب، علىٰ غايةِ ما يريد، من إشراقِ شموس الحقائق عليه، وطلبِها السعيد، وحينَئذٍ يشهَدُ الجمالَ والجلالَ[٤] والكمال[٥]، وتكونُ له شهيُّ المُخاطَباتِ القلبيّة، ثم الرُّوحيّة، ثم السرِّية، وذلك علىٰ مناسباتِ أحوالِه المرْضية؛ لأن خطاباتِ القلبِ غيرُ خطاباتِ الرُّوح، وخطاباتِ الروحِ غيرُ خطاباتِ السرّ.

---

(١) أي: التي في صدْر المكاتبة.

(٢) السالك: من مشىٰ علىٰ المقاماتِ بحاله لا بعلمه وتصوره، فكان العلم الحاصل له عِياناً يأمَنُ ورودَ الشُّبَهِ المُضِلّةِ عليه، «التوقيف»: (٣٩٤).

(٣) المراد هو: المجذوبُ عن إرادته مع تميُّزِ الأمر له، فهو يجاوزُ الرسوم والمقامات في غير مشقة، «التوقيف»: (٦٤٧).

(٤) الجلال: احتجاب الحق عنّا بعزته. والجمال: تجليهِ لنا برحمته، «التوقيف»: (٢٤٧).

(٥) الكمال: الانتهاء إلىٰ غايةٍ ليس وراءها مزيدٌ من كل جهة. «التوقيف»: (٦٠٩).

فهذه الأحـوالُ هو بها مُتّصف، وبها يصيرُ هو المعروفَ والمعترِف، وهذا يلَذُّ له لذةَ ما نال، لذةً لا يُعرِّفُها مقال، ولا يشيرُ إليها إلا كُمَّلُ الرجال، وعند حصوله علىٰ هذا العطاء الفيّاضِ الجاريِ، الذي هو في كل ذراتِه ساريِ، يكـونُ هو المهنّـأَ بغايةِ المُنىٰ، من التقريـب والإدنـاء، فإنه يكونُ له شريـفُ المعنىٰ.

وهنا يصِفُ العبارةَ عن ذلك حتّىٰ بالإشارة، ولو وقَعَ لنا ذرةٌ من ذلك لرُبّمـا وذكَرْنـا شيئاً مما هنالك، ولكنّ الفُلَيـسَ لا يكـونُ للمملـوكِ من أعزِّ حُلَيس.

٭٭٭

وأنا كما ترىٰ متلبِّسٌ بصنوف الزِّرَا[١]، ومع أمّ حَبَوكَرىٰ[٢]، فأعمالي قبائح، وأحوالي كلُّها فضائح، وقد كنت أسمَعُ حِسانَ النصائح، فبعُدَ عنّي مَن ينصحُنـي، لهـذا كانت لطائفي كلُّها فواتِح، ولولا ألمي ما قلت: آه! ولا أكثرتُ من التأسُّـفِ والمَشْكاة[٣]، ولكنّي لمـا عرفـت، ثم قصّـرتُ عمّا له تعرفْت، أظهرتُ ما كان في كِنِّ خَفاه.

فإني قد لمعَتْ لي بارقاتُ الإحسان، ورعدَتْ علىٰ ساحاتِ قلبي رعْدُ الامتنـان، ثم أمطَـرتْ عليها صَيِّبـاتُ الأمْـزان[٤]، واهتـزت أرضي بالحَيَا[٥]

---

(١) الزرا: العيب، أو ما يورِثُ الاحتقار.

(٢) كنيةٌ للدنيا.

(٣) أي: الشّكاية.

(٤) أي: السحب.

(٥) الحَيَا؛ بدون مدّ: المطر.

المُغـدِق، ونبت فيها كل نبتٍ مُورِق. ولكنْ، لمّا أفلَـت شموسي، وطلَعَت طالعـات[١] نُحوسي، أجدبَتْ أرضي، ويبِسَـت من شدة حرِّ قيْضي، إلا أني أرجو ببركات أحبابي، حصولَ ما صار لي هنا يومَ إيابي.

فإني لا أظنُّ أن بَذْرَهم يكون في سِبَـاخ، وأن هِباتِهم تقعُ في إناءٍ حوىٰ مقـذَّراتِ الأوساخ، هذا لا يرضاه عاقل، وأشياخـي، الكلُّ منهم كاملٌ وابنُ كامل، وعندَ هذا اطمأنّ خاطري، وقرّ ناظري، وأنا لا أغترُّ بذلك، فربّما وذلك علىٰ شروطٍ لم أوفِ بها، ولـم أقُم بحقِّها، فالأمرُ لله، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

والأمـل في المـولىٰ طويـل، أن يقبَل صحيحَنـا والعليـل، فإنّما عليه التعويل، هنا ويومَ الرحيل، ونحن في ضِيافته، وعبيدُ مِنّتِه، وإن لم نَفِ بحق خدمتِه، إذ هو واسعُ الجود، وعطاه علىٰ الدوام ممدود، وقد لُذْنا ببابِه، ووَقَفْنا علىٰ أعتابِه، وهُو الرحيم الودود، انقطعت آمالُنا إلا منه، وذهبت أطماعُنا إلا فيه، فعليه اتكالُنا في هذه وأُخرانا.

* * *

والحمدُ لله علىٰ ما أسعَدَ العبدَ وهو لابسٌ أثوابَ تقواه بظاهرِه وخفاه، ومُتَحلٍّ بحُلىٰ إخلاصِه وصدقه في معاملته إيّاه، ومُتقلِّدٌ سلاحَ جهادِه علىٰ أعداه، وطائرٌ بأجنحة غرامِه وشوقه إلىٰ أوطانِ مَحْياه، ومجالي رضاه، ينتظرُ لذيذَ الخطاب: أنْ بادِرِ الوصولَ أيها الموفَّق، تحصُلْ علىٰ سعادة الأبد، وتفُزْ من الله بغايةِ حِماه، وجزيلِ عطاه.

---

(١) الطالـع: الهلال، ويقال للنجوم والكواكب: الطوالع، وهي عندَهم: طوالعُ خير، وطوالعُ نحس. والمراد بها هنا المجاز لا الحقيقة.

والصلاةُ والسلام علىٰ حبيبهِ ومرتضاه، سيدِ رسُلِه وأنبياه، حبيبنا محمّد، أفضلِ مَن أولاه وحبَاه، وعلىٰ آله وصحبه الهُداة، وعلىٰ التابعينَ لهم، الدالِّينَ علىٰ الله والدعاة.

ونرجو أن يكون محِبُّنا ومحبوبُنا، ومحسوبُنا ومنسوبُنا، كريمُ الأخلاق، وطيِّبُ الوِفاق، ومَن له في حلَباتِ الجدِّ والاجتهاد كريمُ السباق ــ وأعنيه ــ محمدُ بنُ أبي بكرٍ باذيب، وفَّرَ الله له الحظَّ والنصيب، مِن أسباب التقريب، وكان له ومعه في كل حال، هنا وفي المآل، ووهَبَه ومنَحَه هِباتِ ومِنَحَ الرجال، وأشهدَه مشاهدَهم، ورقّاه مراقيَهم، وأعطاه ما لا يخطُرُ علىٰ بال، هو ومَن له يُوال.

ثم أُهدي سلامي التام، بمعناه الخاصِّ والعام، وأطوي له فيه سرّاً يُنهضُ قُواه إلىٰ ما هو غاية الفوز والمَرام، فإن السلامةَ بهذا المعنىٰ هديةُ الأحبابِ للأحباب، والأصحابِ للأصحاب.

ولولا خوفُ الإطالة لأبدَيْنا من معاني السلامِ العجَبَ العُجاب، ولكنا خِفنا التطويل، واللبيبُ يكفيه عن الكثير القليل، وما جعله ربُّ البريةِ تحيةً مرْضِية، إلا لأمورٍ خَفِيّةٍ وجَلِيّة.

* * *

[من معاني السلام]:

وهو من أسماء الرب[1]، فإذا قال المُسلِّمُ للمسلَّمِ عليه: «السلام عليكم»، فكأنه قال: أنت في أمانٍ مني ظاهراً وباطناً، حِساً ومعنىٰ، فلا أُضمِرُ

(١) وقد ورد في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ . .﴾ [الحشر: ٢٣] الآية.

لك غِشاً ولا حِقداً، ويصفو لك وُدِّي، ولا ينالُك مني بغضٌ ولا حسد، ولا يصلُك مني أذًى قطّ، ولا شيءٌ مما فيه لحالتِك مشقةٌ أو حَطّ، بل لا يأتيك مني إلا كلُّ ما تحِبُّه وترضاه، فأنا أخوك في الله.

فإذا سلّم المُسلِمُ علىٰ أخيه وهو بهذه النية، فتحيتُه لأخيه خيرُ تحية، وبها ينالُ كلَّ أمنيّة، هنا وبعدَ المنية. ولْيحذَرِ المُسلِمُ من الذب والافتراء، وهو أن يسلِّم عليه بالأمانِ له، فإذا هو بعدُ ينالُه منه صنوفُ الزَّرىٰ. هذا معنىٰ السلام من العامة للعامة.

وأما سلامُ الخاصة للخاصة فمعناه ــ بعد إحرازِ المعنىٰ من بابِ أولىٰ ــ: السَّلامُ ــ الذي هو اسم الله ــ عليكم، بالحفظِ والوقاية، وزيْنِ الرعاية، في أن لا يكونَ لكم ركونٌ إلىٰ السِّوىٰ، أو تكونَ عندكم دعوىٰ أو متابعةُ أهواء، فإن السلامَ يُسلِّمُكم من ذلك، وهو عليكم رقيب، يحفَظكم من جميع المَهالك، ويُرقّيكم إلىٰ خيرِ المَدارك.

وهذا في المقامَينِ من بعض معاني السلام: انظُرْ إلىٰ الملائكة وتسليمِهم علىٰ أهل الجنة، وانظر إلىٰ تسليم الله عليهم، فما أجلَّ معنىٰ السلام، هنا وبدار السلام. وانظر إلىٰ الجنّة، فإن اسمَها «دارُ السلام»، وأهلُ الله وخاصتُه من الأنام هم في جَنّة، وإن كانوا هنا فلهم منه عظيمُ المِنّة، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، في كل وقتٍ وحين، رضي الله عنهم أجمعين.

***

صدرَتْ هذه الأحرفُ ونحن واللائذونَ بنا بعافيةٍ ضافية، وفي ألطافٍ ظاهرةٍ وخافية، معَ أنّ الزمان قد شدّ علينا بخيْلِه ورَجِله، وأحْرَبَنا

بسلاح جهلِه وبغيِه وعذلِه، وكل ذلك بسببٍ، لو عقَلْنا ـ وما تنبَّهْنا! ـ خصوصاً من بعدِ ما غابت نجومنا والأقمار، دهَتْنا حوادثُ الأغيار، وبُلينا بمعاناةِ الصِّغار والكبار، ولا هناك يا مُحِبُّ مَن يخوضُ في علمِ الخاصّة، ما[1] غيرَ الخوضِ في القيلِ والقال، حتىٰ ممن نظُنّ أنهم رجال، ولكنّ الأمرَ للمُتَعال.

وإذا تراكمَتْ خواطرُ الغيريّة، وظهرَتْ منا البشرية، أبرَدْنا ذلك الإيحاش، وسلَّينا الخاطرَ والجأش، بـ «لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله العليِّ العظيم»، فإنها كنزٌ من كنوز الجنة[2]، وبها إذا مرَّتْ علىٰ البال زوالُ كل محنةٍ وإحنة، فهذا مستنَدُنا، وهذا مشهَدُنا، حيثُ الدهرُ عضَّنا وأوبقَنا، وهو آخرُ زمان، وما أتىٰ فيه ومنه صَبَرنا علىٰ مضَضِه، ورفعنا شكوانا إلىٰ الملكِ الديّان، وبحولِه وقوته نُعان، في كل شأن، سراً وإعلان، جَناناً وأركان، ديناً وأديان.

هذا، وكتابُكم وصَل، وبأيدينا اتصل، وعرَفْنا ما فيه، ظاهره وخافيه، وأعجَبَنا خطابُه النفيس، وحكىٰ لنا أنك علىٰ حالٍ أنيس، وأنك رجلٌ لك

---

(١) «ما» نافية عاملة عمل: «ليس»، أي: ليس هناك غير.

(٢) لما ورد في «الصحيحين»، من حديث أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه، قال ـ واللفظ للبخاريِّ (٣٩٦٨) ـ: لمّا غزا رسولُ ﷺ خيبر، أو قال: لمّا توجّهَ رسولُ الله ﷺ، أشرَفَ الناسُ علىٰ وادٍ، فرفَعوا أصواتَهم بالتكبير: الله أكبرُ الله أكبرُ لا إلٰهَ إلا الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «أربِعُوا علىٰ أنفُسِكم، إنكم لا تدعُونَ أصَمَّ ولا غائباً، إنكم تدعُونَ سميعاً قريباً وهُو معَكم»، وأنا خلفَ دابةِ رسولِ الله ﷺ، فسمِعَني وأنا أقول: لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله، فقال لي: «يا عبدَ الله بنَ قيس»، قلت: لبّيك يا رسولَ الله، قال: «ألا أدُلُّك علىٰ كلمةٍ من كنزٍ من كنوزِ الجنة؟» قلت: بلىٰ يا رسولَ الله فِداك أبي وأمي، قال: «لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله». ومثله عند مسلم برقم (٢٧٠٤).

مقامٌ وتعريس(١)، في منازل الخيَرة البرَرةِ من ذوي التقديس.

***

[تأكيدُه علىٰ صحّةِ أخْذِ الشيخِ محمّد باذيب عن الأستاذِ الأبرّ]:

وذكَرْتَ: هل يصِحُّ لك أن ترويَ عن سيّدِنا الأبرّ، والإمامِ الأفخر، الذي هو الكبريتُ الأحمر(٢)، والكنزُ الأكبر، صاحبُ الختْميّة، ونائبُ الحضرة المحمّدية، نقطةُ دائرة الصوفية، ومقرُّ أنهار أمواهِ(٣) السادةِ العلَوية، المعروفُ لدىٰ أهلِ البحر والبرّ، سيّدُنا عيدروس بن عمر، نفَعَنا الله ببركاتِه في حياته وبعدَ مماته.

فنقول: نعم، لك ذلك، فقد حضَرْنا إجازتك مِن سيّدنا(٤)، وحبّذا ما هنالك، فلك به كبيرُ المُنىٰ، دنيا وديناً، حيث اتصلَتْ حلقَتُكم بالسلسلة المسلسَلةِ إلىٰ خيرِ البرية.

وإن حصّلتَ ـ مُحِبِّي ـ مجموعَ سيدي المسمّىٰ بـ «عَقْدِ الجواهرِ الجوهرية وسِمطِ الدُّررِ الذهبية»(٥)، وكذلك «منحةُ الفاطرِ» له أيضاً، ففيهما

---

(١) التعريس: النزول في المَحلّ والإقامة فيه.
(٢) الكبريت الأحمر: عنصرٌ نادر، قليل الوجود، يضرَبُ مثلاً للرّجل القليل أمثالُه ونظراؤه.
(٣) الأمواه: جمع ماء، أحدُ جموعه، ويجمع أيضاً علىٰ: مياه.
(٤) يُنظر ما تقدم في: «ثبَت الشيخ محمد باذيب» في ترجمة الحبيب عيدروس بن عمر.
(٥) إنما اسمه الذي اشتُهر به، ووُضع عليه عند طبعه هو: «عقدُ اليواقيت الجوهرية وسِمطُ العين الذهبية»، ولعل هذا الاسمَ سُمّي به أولاً ثم عُدِل عنه إلىٰ هذا، وفي «ثبَت الشيخ سالمِ باصهيّ» ورد قولُ الحبيب عبيد الله له في إجازته: إنه هو الذي جمع «عقد اليواقيت» للحبيب عيدروس، وقام بترتيبه علىٰ هيئته الحالية. =

كل بغية، وذلك أن تروِيَ عنه ما اشتملا عليه وهَدَيا إليه، فإنّ سيدَنا قال: ما مِن شيخٍ في الدنيا ولا كتاب إلا ولي به اتصال، تارةً مطوّلاً وتارةً عال، وأما «سندُ صحيحِ البخاري» فإن شاء الله نرسلُه إليك.

والكتابانِ المذكوران هما عندَنا، إن أردتَ نظرَهما أرسلْناهما إليك، وفيهما ما تقَرُّ به عينُك، ويكمُلُ به زينُك، ويذهب به غيْنُك.

***

وذكرتَ أنك تتعاطىٰ السَّبب[١]، فتعاطيه مما يتعيّن علىٰ المُستبرِئ لدِينه، المربِّي ليقينه، فإنه مما أرشد إليه السلَفُ والخلَف، ووصَّوْا به أتباعَهم ليصِحَّ لهمُ الحال، ويَرِيضَ[٢] منهمُ البال، وهو لا يناقض التوكل، بل هذا من باب «اعقِلْها وتوكَّلْ». فالأسبابُ الصالحةُ معَ النياتِ الصالحة مِن أعظم الطرُقِ المُوصلةِ إلىٰ الله وإلىٰ رضاه، فإنها إذا صَلَحتِ النيةُ كانت نِعْمَ المطِيّةُ إلىٰ المقاماتِ العُلْوية.

فالله الله ــ مُحبّي ــ في قيامِه معَ الإجمال! ومعَ مُصاحبةِ الورَع والتقوىٰ علىٰ حد الاعتدال! فقد عُدّ كثيرٌ من الصحابة[٣] والتابعين[٤]، والسلَف الماضين، والخلَف الذين لهم قدَمٌ راسخٌ في العلمِ واليقين، يتعاطَوْن الأسباب، ويقصِدون بها مقاصدَ تزكو[٥] علىٰ القيامِ والصيام.

---

(١) أي؛ تمارس العمل الذي هو من أسباب الرزق.

(٢) دارجة، أي: يطمئن.

(٣) كعثمانَ وعبد الرحمٰن بن عوفٍ رضي الله عنهما.

(٤) كأبي حنيفةَ النعمانِ رضي الله عنه.

(٥) أي: تزيد.

وأنـت آخـذٌ ــ مُحبًّنا ــ خلْـفَ تلك الأقـدام. ومعَ ذلك أنت جمعْتَ بذا السبـبَ: الدنيويَّ والأخروي، بارك الله لك في أسبابِك، ويسَّـرَها لك حسَبَ المراد، وصحَّحَ لك القصْدَ في القيام بها في ذهابك وإيابِك، اللهمَّ آمين.

وقد دعَونا لك بالسَّعادة أولاً وآخراً. . والسلام.

الداعي لك والطالب

الفقيرُ إلىٰ الله

عبيدُ الله بنُ مُحسنِ بنِ علَويٍّ السقاف

١٨ رمضانَ سنةَ ١٣١٧».

* * *

المكاتبةُ الثالثة

ومما كتَبَ به إليّ جواباً:

«الحمد لله الحي القَيُّوم الباقي، الذي هو لنا نِعْمَ الساقي، وإذا لسَعَتْنا حيّةُ الهِجرانِ فما أكرمَه من راقٍ! سائلينَ منه أن يُحسِّن لنا المراقي، لنظفرَ منه بجميل الوِفاق، وطيْب التلاقي، بجاهِ مَن أعلىٰ الله رتبتَه، وأجزل عطيتَه، سيّدِنا محمّدٍ ﷺ، أجلِّ من أُتحِفَ مِن مولاه بما هو باقي، صلىٰ الله وسلّم عليه، وزاده شرفاً لديه، وحشَرَنا في زُمرتِه، معَ خاصّتِه، من أهل مُتابعتِه، في عاداتِه وعباداتِه، الفائضةِ منه لهم صافياتُ المساقي.

وبعد،

فيُنهي الفقيرُ الحقير، المُعترِفُ بالقصور والتقصير، المُخلِّطُ المُخبِّط، المُسرِفُ علىٰ نفسِه المُفرِّط، عبيدُ الله بن مُحسن بن علَويّ، السلامَ: اللسانيَّ والخفيّ، إلىٰ مُحِبّه ومُودِّه، الصادقِ إن شاء الله في كل قصْدِه، البالغِ بحول الله في الخير طاقتَه ووُسعَ جهدِه، محمدِ بن أبي بكر باذيب، أسألُ الله لي وله أوفرَ الحظِّ من كل خيرٍ خَصَّصَ به أهلَ القُرْب والتقريب، وجعَلَنا جميعاً ممن إذا دعاهم يُلبّي ويُجيب، إنه المُجيبُ لعبده والقريب، اللهم آمينَ يا ربَّ العالمين.

***

صدرَتْ هذه بعـدَ وصـولِ خطابِك الكريم، وحديثك القويم، بارك الله فيك، وفي ذويك، وجملةِ تابعيك، وجعل مكنونَ علمِك وعزيزَ فهمِك يجري نُطقاً مِن فيك، لينفعَ به الطالبَ الراغب، فتقَعَ أنت وهو علىٰ سَنِيِّ المطالب، إذ هذا الوقتُ قد كثُرَ ظلامُه، وخبَتْ(١) أنوارُه، وتوارَتْ أعلامُه(٢).

فمِن حقِّ من أكرمَه مولاه ولو بقليلٍ من العلم، أن يحكيَه ويُعلِّمَه كلَّ غِرٍّ فَدْم(٣)، فبذلك يُكرَمُ من المُكرِمِ المُنعِم، بكلِّ ما يسُرُّ خاطرَه، ويُقِرُّ ناظرَه، مما لم يكن لديه عُلِم.

واللعين(٤)، كلَّ وقتٍ وحين، يقول لمن يُعلِّم هذا العلم: لست أنت من أهل التمكين، ويُخافُ عليك من الرياءِ والعُجُب، يا ضعيفُ يا مسكين!

وهذا ــ من الشيطان ــ حقٌّ أرادَ به علىٰ هذا العبدِ الإفساد، ليَقصُرَ به عن ما هو عينُ المراد، فينبغي أن يُرَدَّ عليه ويقول: اخسَأْ يا لعين، فهذه دعوةُ ربِّي، وبه أستعين، وهو لي يُعين، وإن دخلَ عملي شيءٌ من العِلَل فأسألُه أن يجعلَني من المُخلِصين، ببركة تبعيَّتي لسيد المرسلين ﷺ، من تعليم الجاهلين، وإرشاد الضالين.

ومعَ هذا لو حصلَ الرياءُ والعُجْبُ حقيقةً لم يُعـذَرْ به العالِمُ عنِ التعليم، إذِ الرياءُ قنطرةٌ إلىٰ ما وراه من المقام العظيم، فهو أولاً قد يكون عندَ من لديه فضيلةُ علم، ثم لا يزالُ يزولُ من بركةِ العلم، حتىٰ ينمحيَ بالكُلية، ويخلِصَ العبدُ الفعلَ والنيّة، لربِّ البرية.

---

(١) خبَتْ: طُفئت.

(٢) الأعلام؛ جمعُ علَم: إمّا بمعنىٰ الرجال، أو الرايات.

(٣) الفَدم: العيي، أو الذي لا يفهَمُ بسرعة.

(٤) أي: الشيطان الرجيم.

وقد قالوا: إن المُهلِكات جميعَها مركوزةٌ[١] في كلِّ إنسان، ولولاها ما نالتْه فضيلةُ المُجاهَدة، التي ثمرتُها المشاهدة، ولا يكون العبدُ كاملَ الإنسانية، حتىٰ تكونَ كلُّ الأوصافِ: المحمودةِ والمذمومةِ فيه، ثم هو يجاهد نفسَه وشيطانَه حتىٰ يغلبَهما، وينالَ فوقَ ما يرتجيه، فإذا المطرودُ المبعودُ من حضرة المعبود، بالحسرة والويل والثُّبورِ يعود.

وهذا المؤمنُ القويُّ الذي هو خيرٌ من الضعيف كما في الحديث[٢]، وأرجو الله أنك ـ مُحبِّي ـ ذلك المؤمنُ القويّ، الذي يصرَعُ اللعينَ الغويّ، ويُخالفُ نفسَه وهواه ويسيرُ بالسيرِ السَّوِيّ، جعَلَنا الله وإياك ممن سار بسيرةِ العارفين، أهلِ التوحيد والتمكين[٣]، الذين لهمُ القِدْحُ المُعلّىٰ، والكأسُ المُمَلّا، مِن سرِّ ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وهذا إذا صدَقْنا يصِلُ إليّ وإليك، فما الشأنُ إلا الصدقُ في المعاملة، فإنه سيفٌ ما وقَعَ علىٰ شيءٍ إلا قدَّه، ومعَه يُدرِكُ العبدُ مِن كل حالٍ ومقامٍ أعلاه، وأكملَه.

فيا محبِّي، عليك دائماً بقَرْعِ الباب، والأسبابَ الصالحةَ اجعَلْها من قرْعِ الباب، وذلك بالنيَّةِ فيها كنيَّةِ أولي الألباب، الذين كانت أسبابُهم وُصْلةً[٤] إلىٰ ربِّ الأرباب، وغيرُهم كانت لهم أكثفَ حجاب.

فالدنيا للرجُل الموفَّق تِريَاق، ولغيرِه عذابٌ أيُّ عذاب، وإنما ضِيقُ

---

(١) أي: مدفونة.

(٢) وهو ما رواه مسلمٌ في «صحيحه» (٢٦٦٤): قال رسولُ الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله منَ المؤمنِ الضعيف، وفي كلٍّ خير . .» الحديث.

(٣) التمكين عند أهل الله: مقامُ الرسوخ والاستقرارِ علىٰ الاستقامة، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين؛ لأنه يرتقي من حالٍ إلىٰ حال، وينتقل من وصفٍ إلىٰ وصف، فإذا وصل واتصل فقد حصل التمكين، «التوقيف»: (٢٠٧).

(٤) أي: سبباً مُوصلاً.

القلوبِ وعدمُ اتِّساعها لِفُقْدانِ النورِ فيها، وأما التي مُلئتْ نوراً فهي تَسَعُ لكلِّ شيّ، وما هو بصورة الميِّتِ عندَها يرجِعُ بعدُ حيّ، لوُسْعِها وحُسنِ نظَرِها، فإنه ما وَسِعَ الحقَّ[١] وُسْعَ معرفةٍ إلا قلبُ المؤمنِ الوازع.

وكلُّ شيءٍ عند المؤمن العارف حقٌّ، وإنما الحقُّ عندَه يختلف من حيث الشريعةُ والحقيقة، وهنا تطُولُ العبارة، ويكفي فيها الإيماءُ والإشارة، وعلىٰ الله التُّكلانُ وبه المُستعان، في كلِّ شيءٍ: سرّاً وإعلان.

وقد دعَونا لك ـ مُحِبَّنا ـ ولأنفُسِنا، ولكلِّ مَن تعلَّقَ بنا، أن يُرقِّيَنا إلىٰ مراقـي أوليائه، فإن لم يوفِّقْنا لذلك، فيُقرِّبُنـا منهـا، ويُشرِفُ بنا عليها، وإن لم فيحبِّبُنـا إلىٰ كل من أحبَّ، ويرزُقُنـا النسبـةَ[٢] بهم هنـا لنكونَ معَهم في المُنقلَب».

* * *

(١) إشارةً إلىٰ الحديث المتقدم: «ما وسِعَني أرضي..».
(٢) كذا في الأصل، وتقرأ أيضاً: التشبه.

المكاتبةُ الرابعة

ومما كتَبَ به إليّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

المُبشِّرُ هو المصطفىٰ ﷺ، أمَرَه المولىٰ أن يُبشِّر عبادَه المنسوبين إليه نسبةَ اختصاصٍ، لكونهم لديه من الخواصّ، والمُبشَّرُ به محذوف، وهو شيءٌ عظيمٌ لا يُعبَّرُ عنه بعبارة، بل يُومأ إليه بالإشارة.

والسماعُ المذكورُ يحصُلُ بالآذانِ الرُّوحية، المُتلقَّىٰ بالآذانِ الشحْميّة فيَسمَعونَه أولاً من مُعلِّم التعليم، ثم ممن فوقَه، وهكذا ثم يسمَعونَه من مُنزلِهِ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، وللوارث حكمُ الموروث، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فمن كان في رُتبةِ التعليمِ الإلٰهيّ، فهو العبدُ الموصوفُ بأنّه المُستيقظُ لا الساهي اللاهي، ومَن هو في هذا المقامِ لا يقالُ: ذهبَتْ واسطتُه العظمىٰ، التي هي وَساطةُ سنةِ أهلِ الأرض والسما، وإنما هي حينَئذٍ تكادُ تخفَىٰ، وإلا فلا بدَّ منها، وعندَ هذا.

مثالُها في الخارج: لا تقول ـ إذا أبصرتَ شيئاً ـ: أبصرْتُه بعيني البصَريّة بواسطةِ الشمس، وفي الحقيقةِ أنك أبصرتَه بعينيكَ بواسطةِ الشمس،

لكنك لا تذكُرُها، بل تقولُ: نظرتُ كذا، سمِعْتُ كذا، ولا تقول: بأذُني، كما في العين. وعندَ هذا تنفتحُ علومٌ أبوابُها متسعةٌ لطالبي دخولها، لينالوا مقامَ الرِّفعةِ والمنَعة.

و﴿ٱلْقَوْلَ﴾ هو: القرآنُ العظيم، و﴿أَحْسَنَهُۥٓ﴾ . . .[١]، فالمجموعُ باطنَه يتخيلُ روحانيةَ المُشرِّع ﷺ يُلقيه كلّما تلاه عليه. فإذا دامَ علىٰ ذلك ربما وظهرت ذاتُه الشريفة[٢]، فأوصَلَتْ وألقَتْ إليه، ثم بعدُ يَمُنُّ الله بحالةٍ كبرىٰ، فيكونُ العبدُ حالةَ التلاوة كأنه علىٰ مُنزِلِه يقرَأ.

***

والحمدُ لله الكريم، الواهبِ للمواهب، لسائلِها والطّالب، الذي هو إلىٰ ربِّه ذاهب، في جميع المذاهب، فهو حاضرٌ بجسمِه مع جِنْسِه، بروحِه غائب:

كم شخصٍ تنظُرُه حاضراً ورُوحُه في العُلا تَجُولُ

فما أجلَّ حالةَ عبدٍ خُلِعَتْ عليه خِلَعُ التقريب، فإذا هو القريبُ من القريب، الفائزُ بجميع المطالب والمآرب.

والصلاةُ والسلام علىٰ سيدِنا محمدٍ ﷺ، أفضلِ وأجلِّ أهلِ الرتَب والمناصب، مَنِ الكلُّ مُستمدٌّ من بحوره السَّواكب، الحاضرُ منهم والغائب، وعلىٰ آلِه الأطايب، وصحبِه الحبايب، وعلىٰ التابعين لهم علىٰ قدَمِ التقوىٰ، الشاربينَ من تلك المشارب.

وإن شاء الله أنّ مُحبَّنا ومحبوبَنا، مَن هو متَّصفٌ بحول الله بصفةِ الإدناءِ

---

(١) بياضٌ بالأصل.

(٢) هذا من باب الاجتماع بالنبيِّ ﷺ يقَظة، وقد تقدم في ص(٣٣٩) تفصيل هذه المسألة.

ولها مُقَـارب، ومن هو لاحق ــ إن شـاء الله ــ بمرفـوعي المنـاقب، وأعنيه الصادقَ الوامق(١)، الذي هو نِعْمَ المرافق، محمدَ بنَ أبي بكرٍ باذيب، جعلَه الله من أجلِّ مَن يُسارع في مرْضاتِه وعليها يُنافسُ ويسابق، فإذا هو معَ الرفيقِ الأعلىٰ تُدهَقُ(٢) له الكأسات، بالمقاعدِ الصِّدقيات، وكلُّ ما سِوىٰ هذا زاهق، اللهم وإيانا، آمين.

وهذه المطالبُ في هذه الدعَوات، لِمُحبِّنا صحيحِ النيّات، بحولِ الله لا تُرَدّ، إذِ الكريمُ لا تتخطاه الآمال، ولا يُبرِمُه إلحاحُ السؤال، وما منه لا يُحصَرُ ولا يُحـدُّ، ولا يختَـصُّ بزمنٍ دونَ زمـن، ولا بأحدٍ دون أحد، بل هو مبذولٌ للأبيـضِ والأسود، ممن سعىٰ في طلبِـه وجَـدّ، خصَّصَنـا الله ــ ومن عنَيْناه بهذا ــ بكل خصوصية، وجعَلَنا من أهل النفوسِ الزكيّة، الرضيّةِ المرْضيّة، آمين.

ثم تحياتـي الكريمـة، الكاملةُ السليمة، تختصُّ بمُحِبِّنا المخصوص، الذي هو ــ إن شاء الله ــ من أهل الخصوص، تُهدَىٰ إليه وتكون شفاءً له من الأمراض السَّقيمة، وعوْناً علىٰ سلوكِ الطريق المستقيمة، لكونها صدرت من قلبٍ محفوف. . .(٣) يحصُلُ بها علىٰ أكبرِ غنيمة، ويرتَعُ هو ومُحِبُّه في رياضِ الهنا، ويجني هو وإياه نعيمَه، اللهمَّ آمين.

***

---

(١) الوامق: المُحب.

(٢) أي: تُملأ، ومنه قول المولىٰ تعالىٰ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٤] أي: مملوءةً إلىٰ آخرها.

(٣) بياضٌ في الأصل بمقدار كلمة.

صدَرَت ونحن بعافية، وعسىٰ أنها مشكورة[١]، والتجارةُ تكون مبرورة، ونرجو أن مُحبَّنا سعيُه حميد، وقولُه سديد، وأنه مُعانٌ في هذا الوقت الشديد.

وكتابُ محبنا وصَل، والعُمدة الكبرىٰ: الأمورُ المعنوية، والدعاءُ الذي هو أعظمُ عطيّة، وأجلُّ هدية، فادْعُ لنا كما أنّا لك داعون، وبك معتنون، وإن شاء الله نُقابلُ المكتوبَ ونرسلُه.

***

ويا مُحبِّي الأحبّ، أراكَ لا تذكُرُ لي السلامَ من «فلانٍ» القريب، وأرجو أن يكون ذلك لِنسيان، لا لشيءٍ في الجَنان، وإن كانَ فينبغي منكم التنصُّلُ منه لأنكم زِيانُ الزيان، ونَقْوةُ[٢] أعيان.

وقد عرفْنَاكم معرفةً روحيةً فوقَ الشَّبَحيّة، ومن حقِّنا أن نتحسَّسَ[٣] أخباركم، ونعرِفَ أسراركم، فإن كان ما حصَلَ عندي كذلك فعرِّفْني بما هنالك، والأَوْلىٰ الإصلاحُ وتطييبُ الخاطر، علىٰ كل أحد، قريبٍ وبعيد، والقريبُ آكَد.

فيا أخي، أسألُ الله أن يُبقِيَ بيتَ القلبِ منكم نظيف، ما فيه تحريف، فإن القلبَ السليم من الأحقاد والأحساد هو الذي تُنقشُ فيه محاسنُ العلوم، منطوقُها والمفهوم.

مَـن أتـانـا كبيـاضٍ — ليـس فيـه مِـن كتـابَـهْ
كتَـبَ «الإرشـادُ» عنـا — فيه «منهاجَ» الإصابَهْ

---

(١) أي: العافية.

(٢) النقوة: الخلاصة من الشيء، من الانتقاء.

(٣) أي: نتلمس ونتفقد، كلها بمعنىً.

وقلوبُنا وقلوبُ مُحبِّنا ـ إن شاء الله ـ طيّبةُ الأبيات، كريمةُ الذات والصِّفـات. ووالله يا محبِّـي، إنّ ما قلتُه لكَ لم يقُلْ لي به أحد، وإنما عرفتُه بالقرينة، وإن شاء الله لا أسمَعُ عنكم إلا السَّماعاتِ الحسَنة(١).

والسلام عليكم ورحمة الله

المستمِدُّ والداعي لكم

عبيدُ الله بنُ مُحسن».

* * *

(١) وسيأتي في الرسالة التالية ردُّ الشيخ محمدٍ علىٰ هذه التساؤلات، وأنه لم يكن بينَه وبين ذلك الرجل المعني بالتساؤل أيُّ خلاف.

جوابُ الشيخِ محمّد علىٰ الرسالةِ السابقة

قال رحمه الله تعالىٰ: «فأجبتُ الحبيبَ عبيد لله بن مُحسنٍ بما صورتُه:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله المتّصـفِ بالأفضـال، المبتدىءِ بالنوالِ قبل السؤال، أحمَدُه علىٰ كـل حال، وفي كل حال، ومِن كل حال، والصلاةُ والسلام علىٰ حبيبِنا وسيدِنا محمدٍ ﷺ، وعلىٰ الصحابة والآل.

وأخُصُّ بكتابي سيدَنا وبركَتَنا، ومولانا الإمام، قدوةَ الأنام، جوهرةَ الآل، وواسطةَ عِقد اللآل، الحبيبَ العارف بالله عبيدَ لله بنَ مُحسن بن علَويّ السقاف، حفظه الله تعالىٰ ونفع به كافة المسلمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

صدَرَتِ الأحرفُ من بلد (شبامَ) لتجديد العهد، وللسؤال عن أحوالِكم، وطلباً للدعاء، وقد وصَلَ إليّ كتابُكمُ الكريم، وحصل به الأنسُ العظيم، حيث أنبأنا عن حُسن النظر، وقوةِ الاعتناء، وجميل المحافظة والملاحظة للخاصّ والعام، ولَمّا وقفتُ علىٰ جوابكم ذكرتُ ما قيل:

جزَىٰ الله عنّا الحاسدينَ، فإنهم قدِ استوجَبوا منّا علىٰ فعلِهمْ شُكْرا

ثم وقفتُ علىٰ كتابِكم «الفلانِ» فقلت: اللهم غُفْراً. وما توهمتُموه فهو

ظنٌّ ووهم، نشأ بقرينةِ عدم ذكْري «الفلان»، فعذري: أنه لم يكن حاضراً، ولا أمَرَني بتبليغ السلام إليكم، ومرةً بلّغتُه سلامَكم فأخبرني أنه كتَبَ إليكم، ورأيتُ جوابَكم له، فعدَمُ الذكْر إن تكرَّر فهو لنسيانٍ لا لشيءٍ في الجَنان، بل لم يَسمَعْ مني ولم أسْمَعْ منه بادرةً ولا نادرةً، فالقلوبُ سليمةٌ والأحوالُ مستقيمة، وأنا معه حارزُ نيْلِ الأمل، وافرُ جناحِ الحُبورِ والجذَل.

بل أقول ــ ولله الحمد ــ: إن الأباعدَ فضلاً عن الأقارب لو بعُدوا لقرُبت، ولو أخطأوا لأصَبت، بل لو مدَّ الزمانُ حبلَ الوِداد، وكَفَّ كفَّ العِناد، وفتح بابَ السداد، لكنتُ عبدَهم وخادمَهم في جميع حاجاتهم.

وجديرٌ بالعاقلِ المُستبرىءِ لدينِه أن يستديمَ الوسيلةَ التي نال بها الفضيلة، ويستبقيَ الذريعة، التي أسكنته المنزلةَ الرفيعة، أتُرىٰ يا سيّدي بعدَ صُحبتي الأحبار[1] الأخيار، والاتصالِ بالمشايخ الكبار، يحسُنُ بِمُحبّكم أن يُخيِّبَ ظنَّهم فيه، وأن يعرِّجَ على ما لا يعنيه؟!

والله، لقد أكسَبَني مطالعةُ أحوالِكم وأحوالهم، والتطلعُ علىٰ محاسنِ سيرِهم وأخبارِهم، والتعلقُ بهم وبأقوالهم وأفعالهم، أني لا أجِدُ في قلبيَ الآن علىٰ أحدٍ من خلْق الله تعالىٰ غِلاً ولا حقداً.

***

[ذكْرُ حادثةِ الإصلاحِ التي جرَتْ في الحديدةِ للشيخِ محمّد]:

وأُخبِرُكم ــ والشيءُ بالشيِ يُذكَر ــ: أني خرجتُ من اليمنِ بعد تكرارِ السفرِ إليها نحو اثنتين وعشرين سنة، علىٰ كثرة الخُلَطاء والمُعامِلينَ في أمورِ السبب، وأنا سليمُ الخاطر عليهم، معمورُ القلب، لم أجِدْ في قلبي مشقةً من

---

(١) جمع حبر، وهو: العالم الكبير.

أحدٍ منهم، حتىٰ منَ الظلَمةِ وأهل المَكْس، وقد جعلتُهم في حِلٍّ مما تناولوه من الأموال والأعراض. وأرجو من الله تعالىٰ أن يُرضيَ عني جميع مَن له حقٌّ عليَّ ولم أطّلع عليه، بل كنت حالَ صُحبتي للأشياخ، واقتباسي من أخلاقهم، أكرَهُ كلَّ خُلُقٍ دنِيّ، وقولٍ رديّ، ولا أُبرِّىءُ نفسي.

ولما وقعَ التنازعُ في مسألة «البيع علىٰ الكافر الحربيّ»[1] بين فقيهَين في «الحديدة»، وجرىٰ بينَهما ما لا يحسُنُ ذكْرُه، أمرَني بعضُ أهل العلمِ من السادة[2] أن أُصلحَ بينَهما، فكتبتُ لهما تعريفاً، ثم جمعتُهما فاصطلحا، ومِن غريب الاتفاق أنّ أحدَهُما توفِّي في تلك السنة، والآخرُ في السنة الثانية.

***

وصورة التعريف:

«إلىٰ سيّدي وأخي، نخبةِ الأفاضل، الفقيه العلامّة «فلانِ بنِ فلان».

أمّا بعدُ يا أخي فإنك بالمحلّ الذي لا يُنكَر، والفضل الذي جَلَّ أن يُشهَر. وقد وقفْتُ علىٰ الأراجيز الصادرة منكما، المُسيئةِ للعاذل والعاذر، فرأيتُ الشيطانَ قضىٰ بها المآرب، واستولىٰ عليكما من كل جانب، أنتجَتْ بينَكما الإحَنَ والشحنا، وكدَّرَتْ عيشَكما الأهنا.

ولستم أولَ مَن وقع بينَهما الاختلاف، وما استُشكِلَ مرجعُه إلىٰ كتابِ الله وسنةِ رسوله ﷺ وأقوالِ الأئمة، والذي بينَنا لا يبلُغ الأديان، فاللَّجْأُ إلىٰ الملكِ الديّان.

---

(١) ينظر رسالة «إرشاد الحائر» للشيخ محمد، ففيها ذكر ذلك الخلاف، ولكن من دون تسمية الرجلين.

(٢) هو السيد حسن بن مُحسنِ العطاس. تنظر ترجمته في هذا الكتاب ص (٢٥٤).

وقد أمرني سيدي القدوةُ «فلان» أن ألتمسَ منكمُ الأصغاءَ إلىٰ الإصلاح، ليكون سبباً للنجاح والفلاح، فقدمتُ بين يديْ نجوايَ هذا التعريف، وأنتم بالمحلِّ الأعلىٰ، وغيرُ خافيكم هذا الإملا، لكنْ قد نُدِبَ التذكيرُ للمفضولِ والفاضلِ، والمنتبهِ والغافل. لا جرَم أنّ اللعينَ أصاب فرصةً فانتهزها، وخاضَ بنا فيما جرىٰ، حتىٰ صيرَنا إلىٰ ما نرىٰ، أرَضِيتُم أن تكونا ضُحْكةً للناظرين، ومُضغةً في أفواه الماضغين؟!

هذا، وقد وخَطَكما المَشِيب، وآذنَتْ شمسُ النهارِ بالمغيب، وأظلَّكم شعبانُ ثم رمضان، أيحِلُّ لرجلٍ مسلمٍ أن يهجُر أخاه فوق ثلاث؟ أين «إنّ أعراضَكم وأموالَكم عليكم حرام»(١)؟

أيُغفَلُ عمّا ورد للمُشاحِنِ في رمضان؟ أتسمَحُ بالهجرِ أنفُسُ الكرام؟ وقد شَمِلتكم أُخوّة الإسلام!! هذه هي [التي] تطوي المراحل، والأحبةُ ما بين مُستوفِزٍ وراحل.

وإنّ افتقادِي واحداً بعدَ واحدٍ ... دليلٌ علىٰ أنْ لا يدومَ خليلُ

فالمأمولُ من سيدي: المبادرةُ بالصَّفْح والتجاوز لأخيه المُشارِ إليه، وتصفيةُ الباطنِ الذي المعوَّلُ عليه، دعُونا نقضي هذه الحياةَ الدنيا بصدورٍ نقيةٍ من الغِشّ، بريئةٍ من الغِلّ:

يا فدَتْك النّفسُ كانت هفوةً ... فاغفِروها واصفَحوا عمّا مضَىٰ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، هذا وحُسنُ الظنِّ أولىٰ ما ادخره المؤمن لنفسه، لا تنظروا إلىٰ من قال، وانظروا إلىٰ ما قال: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَـٰحَ مَا

(١) متفق عليه؛ البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم.

* * *

هذا وقد جرىٰ القلم ـ يا سيدي ـ بما جرىٰ، كما تراه.

وما قطُّ تعجبُني دعاوٍ عريضةٌ ... وإن جاءَ في تصديقِها ألفُ شاهدِ

ولكنْ فتىٰ الفِتيانِ مَن راح واغتدَىٰ ... قليلُ الدعاوي، وهو جمُّ الفوائدِ

لكنْ ألجَأني إلىٰ ذلك تطمينُ خواطِركم، ونحن ـ إن شاء الله ببركاتِ نظَراتِكم ـ محفوظون من كل ما يُخاف، هذا ظننا وأملُنا في الله تعالىٰ وفي رسولِه ﷺ.

* * *

والمسألةُ المشارُ إليها(١) أجابَ عنها جماعةٌ من علماء العصر، وقد جمعتُها(٢) كالرسالةِ بأمرِ شيخِنا الحبيبِ محمّدِ بن عبد القادر الأهدل، ونسبْتُها إليه لكونِه المنتدَبَ في الردِّ علىٰ المُخالفِ، وقد نُقِلَ منها في اليمن و«عدنَ» نحوٌ من عشرِ نسخ، ونسخةٌ منها في «تَرِيمَ» عند الحبيب العلامة علَويِّ بن عبد الرحمٰن مشهور(٣)، فإن أحببتمُ الاطلاع عليها أرسلْناها إليكم.

والسلامُ عليكم ورحمة الله».

---

(١) وهي مسألة البيع علىٰ الكافر الحربيّ.

(٢) هذا دليل صريح علىٰ صحة نسبة الرسالة المذكورة للشيخ محمد، وإن ذكَرَها البعض ضمن مصنفات السيد الأهدل المذكور، وإنما لم ينسُبْها الشيخ لنفسه في ديباجتها وعنوانها تأدباً مع شيخه المذكور، كما هو مبيَّنٌ في مقدمتها.

(٣) العلامـة الرحّالـة الجليـل، ولد (بتريم) سنة ١٢٦٢، وتوفي بها سنة ١٣٤١، تنظر ترجمته في «ثبت الشيخ أحمد لعجم باذيب».

المكاتبةُ الخامسة

وفيها تعقيبٌ واستدراكٌ منَ الحبيبِ عُبيدِ الله علىٰ رسالتِه السابقة

قال الشيخُ رحمه الله تعالىٰ:

«فأجاب سيدُنا المشارُ إليه بقوله:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس: ٥٨]، ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]، إذا شهد العبدُ الفضلَ من الله فلْيفرَحْ بذلك، فإنه فرَحٌ بالله مأمورٌ به من مولاه.

والفرَحُ المنهيُّ عنه: ما ليس فيه هذا الشهود، للكريم المعبود، وكذلك يقالُ في التحدّثِ بالنعمةِ إذا شهِدَها مَن وصَلَت إليه، وحصَلت لديه، مِن ربِّه نزلَتْ عليه، فإنه مأمورٌ بأن يُحدِّث بها، ولغيرِه يُظهِرُها، شكراً لمُسديها ومُبديها، وعلامةُ صدقِ هذه: أن لا يَشْهدَ أحداً حين التحدّثِ بها[١].

ومن هذا أنّ أبا مَدْيَنَ[٢] يقولُ لأصحابه: أظهِرُوا كلَّ أعمالِكم: خَفِيَّها

---

(١) أي: أن لا يشهد صاحبُ النعمة أحداً من الخلق، سوى المنعِم سبحانه وتعالى؛ والله أعلم.

(٢) تقدمت ترجمته في «ثبت الشيخ محمد».

وجليَّها، فإنه ما ثَمَّ غيرُه، تراءونَه وتراقبونَه وتشهدونَه، ما هو إلا الله وبس[١]، وما عداه فهَوَس، عندَ من معه قبَس، من النور الذي اقتبسَ منه منِ اقتبس، في الوادي المقدَّس.

وكلُّ سالكٍ إلىٰ الله تعالىٰ فله وادٍ، يسمَعُ المنادِيَ ينادي: هيا هيّا إلىٰ كلِّ علمـا[٢]، فالألمعيُّ الخطّاب، يبادرُ الجواب، بالمجيءِ إليه والذهاب، وإذا انتفتِ الغيريّة، انتفىٰ التأثير، وإلا فهيَ موجودة، تُذهِبُ منه كل نحوسِه، ويكون أولاً في شهودِ الواحدية ثم الأحَدية.

***

والحمدُ لله الذي شرحَ صدورَ خاصَّتِه[٣]، بأنوارِ معرفتِه، وحَباهم بنعَمِه وفضلِه وجميلِ بركته، حتىٰ لم يشهدوا مُنعِماً سواه، ولا متفضّلاً غيرَه فيما أبداه وأخفاه، من باهرِ حكمتِه في بديع صنعتِه، فهم به مع الأكوان، إن قلت: يشهدونَها[٤]، صدقْت! وإن قلت: لا، صدقْت! وهؤلاءِ أخصُّ بريّتِه، فنعيمُهم هنا لا يُشاكَل ولا يُماثَل في لَذَّتِه.

فإذا كان جمالُ الصدِّيقِ ابنِ الصدِّيقِ[٥] أغنىٰ أهلَ (مصرَ) عن القُوت، وقطَّعْنَ أيديَهنَّ النساءُ مِن لحْظِ نظرتِه، وهو مخلوقٌ وُهِبَ أُنموذجاً[٦] من

(١) أي: فقط.
(٢) كذا في الأصل، ولعله: إلىٰ كل علياء.
(٣) ورد ذكر خاصة الحق سبحانه في حديث: «**أهلُ القرآنِ هم أهلُ الله وخاصّتُه**»، رواه ابن ماجه (٢١٥)، والإمام أحمد في «المسند» (١٢٣٠١).
(٤) أي: الأكوان. أو: حكمة الله في بديع صُنعه لها.
(٥) هو نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام.
(٦) الأنموذج، فارسي معرّب، معناه: القليل من الكثير.

الجمالِ في كريمِ صورتِه، فما حالُ مَن شهِد شيئاً من الجمالِ المُطلَقِ حالةَ أُنسِهِ بالله في خَلْوتِه أو جَلْوتِه؟! ما هو إلا لأجلِ يعبَّرُ عنه بعبارة[١]، لكونه من آثار الأسماء الحسنىٰ وبواسطةِ صفتِه، وكلُّ جمالٍ فمِن جمالِ حضْرتِه.

قال سيدُنا الحدّاد:

هـذا جمـالُ الحـقِّ قـد تجلّـىٰ ولم يكن محجوبَ قبلُ، كلاّ
لكـنّ قلـبَ العبـدِ حيـنَ يُجلـىٰ شاهَدَ، وكانتْ منهُ السَّواترْ[٢]

فهذا الجمالُ ظاهرٌ في جميع المظاهر، وما عليه إلا قشورُ الأكوانِ عند المحجوبِ بها، وإذا أزيلَت رأىٰ ما وراءَها من الجمال، الذي مَن شهِدَه فقد خرَجَ عن عُموميتِه، وحصَل علىٰ خصوصيتِه، وما هناك حجابٌ في الحقيقة، وما إثباتُه إلا مجازٌ عند العارفينَ بحقيقتِه.

***

والصلاةُ والسلامُ علىٰ سيدِنا محمدٍ ﷺ، مِشكاةِ الأنوارِ لأمتِه، وعلىٰ آله وصحبه وكلِّ عشيرتِه.

ثم تحيّتي المسنونة، تتصِلُ بمُحِبّي المُخصَّصِ بالأسرارِ المَصُونة، محمدِ بنِ أبي بكرِ بن محمدٍ باذيب، وهَبَه الله الترقيَ إلىٰ حضَرات التقريب،

---

(١) كذا العبارة في الأصل.

(٢) من قصيدة للإمام الحداد مطلعها:

نسيم حاجر يا نسيم حاجرْ هل من خبر تشفىٰ به السرائرْ

«ديوان الإمام الحداد»: (٢٧٩).

وفي «فوائد» الحبيب محمد بن سُميطٍ علىٰ الديوان قال رحمه الله: «ومن عرائس نظم سيدي نفع الله به: نسيم حاجر، إلخ. إلىٰ أن ذكر فيها المرتبة الثالثة من مراتب اليقين، التي هي أول درجات النبيين، وآخر درجات الصديقين قوله فيها: هذا جمال، إلخ»، انتهى بتصرف يسير.

فإنَّ بها عيشَ العبدِ يطيب، وبها عما سواها يغيب، وشأنُها وأمرُها عجيبٌ وغريب، أوصَلَنا الله ومحبَّنا وكلَّ حبيب، ورزَقَنا علَّها ونهْلَها، اللهمَّ آمين.

صدرَتْ من سيون، والفقيرُ ومن لديه بعافية، المرجوُ من الله أنكم ومَن لديكم كذلك، والعافيةُ تحتاجُ إلىٰ عافية، وهكذا، والأمرُ غَيب، ولا فيه رَيْب، إلا عندَ أهل العيْب.

وكتابُ محبِّنا، المُفْرِح لقلوبِنا وقوالبِنا، وصَل، وبه الأُنسُ حصَل، حيث أظهَرَ لنا المخبَّآت، من جميلِ المُخاطَبات والمُحاوَرات، بارك الله فيك، وبلَّغَك فوقَ ما تؤمِّلُ مِن أمانيك.

وأنتم يا آل باذيب، موفَّرٌ حظُّكم والنصيب، من القريبِ المُجيب، زادَكمُ الله مِن فضلِه، وجعلَكم من خاصَّةِ أهلِه.

وما توهَّمَه الفقير، الذي استدَلَّ بواهي القرينةِ عليه، بطَل، والحمدُ لله علىٰ بُطلانه، ونشكرُ مولانا عزَّ وجل، وهذا الذي توهمتُه، ولكم حكَوتُه، فيه لكم مصلحةٌ كبيرة، ومَنقَبةٌ جليلةٌ خطيرة، تعرفونَها إن شاء الله بنورِ البصيرة، وإن شاء الله أنكم من أهل الجنة، المتْلوّ في حقِّهم: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فنِعمَ تلك المِنة، الله يكفيكم شرَّ العائنين، من الشياطين والحاسدين، اللهمَّ يا ربَّ العالمين.

والكتابُ الذي فيه الرسالةُ أرسِلْه إلينا ننظُرْ ما فيه، كان الله لك ومعَك، والحمد لله الذي جعل في زماننا من أمثالِكم، حفِظ الله الجميع بحفظه.

***

هذا وصدرَتِ المُكاتبة، وقد قابلْناها حسبَ الطاقة، ولمّا قابلْناها أعجَبَنا مبانيها ومعانيها، لعل وتنكتِبُ نسخةٌ بخطٍّ جيدٍ حسَنٍ من كاتبٍ له

معنىٰ، فإنها نفيسةُ المعنىٰ في بحثها، وأنت إن شيءٌ غلطٌ فيها أصلحْه، فإنك فَطِن، وكتابُنا[١] في غايةٍ من السُّقم! ولكنْ مَن عرَف قاعدةَ حروفِنا عرفَه.

وأيضـاً صدَرَ معَ المكاتبـةِ والنقـلِ وصيـةُ الولـدِ أبـي بكرٍ بن سالم[٢]، أعطوهـا إياه، وقابلوهـا أنتم، وأصلحـوا إن شـيء غلـط مِن حيـثُ حروفُ الكتاب، ومن حيثُ المعنىٰ إذا ظهَر.

وأيضاً صدرَتْ مقدّمةُ مُكاتبةٍ لنا، كتبناها لبعض الأولادِ من أهلِ الناد، لعلّ الولدَ أبو بكرٍ ينقُلُها ويجعلُها مع الوصية، ومرادُنا من الولدِ أبي بكرٍ يقرَأُ الوصيةَ والمقدّمةَ علىٰ سيدِنا الحسنِ بنِ أحمد بن سُميط[٣]، وكذلك رُدُّوا لنا المقدمة، ورجِّعوا لنا نسخةً من المُكاتبةِ التي لكم منا.

واعلَموا أنّا مُغتبِطونَ بكم في هذا الزمانِ الفاسد، وإن شاء الله معرفتُنا بكم رحمةٌ متّصلة، هنا وفي الدار الآخرة.

والسـلامُ عليكـم وعلىٰ مُحبِّنـا الميمـون، فـي حـركتِـه والسكـون، عبدِ الرحمٰن[٤] أخيكـم، كما لكـم من ولدِنـا الوجيـهِ عبد الرحمٰن[٥]، ومن

---

(١) يعني: خطه.

(٢) هو الحبشـي، تلميذ الشيـخ محمـد باذيب، المقـدَّمُ الذكـر في مقدمـة «ثبـت الشيخ محمد».

(٣) تقدمت ترجمته في «ثبت باذيب»، انظر ص(١٩٢).

(٤) ستأتي ترجمته مستقلةً في هذا المجموع.

(٥) هو السيد عبد الرحمٰن بن عبيد الله، نابغةُ عصـره، وفريد مِصره، ولد سنة ١٣٠٠، وتـوفـي سنة ١٣٧٥، كـان مفتيَ (حضرموت) في وقته، وشهرته منتشرة في الآفاق، له عـددٌ من المؤلفات، منهـا: «العود الهندي» في الأدب (ط) في (٣) مجلـدات، «وإدام القـوت في تاريخ حضرموت»، رتّبه علىٰ البلدان، طبع مؤخراً بتحقيق كاتب هذه الأسطر.

صاحبِنا الشيخِ محمد(١)، والدعاءُ لكم مبذول، ومنكم مسؤول.

عبيدُ الله بنُ مُحسنِ بنِ علَويّ

٢٥ في الحجة سنة ١٣١٧».

«مُلحَقٌ بما سبق:

نُعلِمُكُم أنّ البارحةَ وقعتْ عندَنا رَوحةٌ(٢) عظيمة، حضَرَها جملةٌ من الإخوان، ومع حصُول أولئكَ قلتُ لصاحبي الشيخ محمد: اقرَإِ المكاتبةَ التي فيها الاستعطاف، والقولَ الذي فيه الإنصاف، التي هي منكم للفقيهَين الأجَلَّين، وببركتها صَارا مصطلِحين.

ثم إن الصاحبَ قرأها، وأُعجِبَ بها مَن سَمِعها، ولم نذكُرْ أنها لكم، فجزاكم الله خيراً، دنيا وأخرىٰ، فالتواصي بالحقِّ والصبر، شأنُ رفيعي القَدْر، وبه لكم في الدارَين عظيمُ الأجر. آواكم الله، سدَّدَكمُ الله، نصَرَكمُ الله، أيَّدَكمُ الله، وجعلكم علىٰ الدوامِ سُعاةً في رضاه، والسلام».

❋ ❋ ❋

---

(١) هو الشيخ الفقيه الصالح محمد بن شيخ الدثني، من بلدة (دثينة) قرب (عدن)، قدم (حضرموت) صغيراً، ولازم الحبيب عبيد الله بن مُحسنٍ مدةً طويلة، وكان نازلاً عنده في بيته يقوم بخدمته والقراءة عليه، ينظر للمزيد: «إدام القوت» في ذكر (سيون).

(٢) الروحة: الدرس أو المجلس الذي يعقد عشية بعد العصر، ويتصدره أحد الشيوخ، ويقرأ فيه عددٌ من الكتب، وتدار القصائد والأناشيد والمدائح وغيرُ ذلك، وسمي روحةً لأنهم يروِّحون فيه عن أنفسهم من عناء الدروس والارتباطات الدنيوية، فتطيب أرواحهم فيه.

المكاتبةُ السادسة

ومما كتَبَ به إليّ قولُه:

«الحمـدُ لله مُزيلِ الهمـومِ والغمـوم، بإزاحـةِ سُحُـبِ الغيوم، وظهورِ سواطعِ شوارقِ شموسِ التجلِّيـات[١] في كلِّ معلـوم، فسبحانَـه الحيُّ القَيّوم، الذي فَتّح قلوبَ خاصّتِه حتىٰ فهِمَتْ عنه ما كان عندَها ليس بمفهوم، ثم صارَ مرويّاً لهم يقرءونَه من صفَحاتِ الأكوانِ الذي هو فيها مرقوم.

وكلُّ هذا ثمراتُ التجلّياتِ عما هو في الحقيقة موهوم، بل هو في عينِ وجـودِه معـدوم، إذ كلُّ ما سواهُ[٢] موجودٌ مجازيّـاً، يعرِفُ هذا ذَوقاً أهلُ الفُهوم، ومع ذلك لأنه من إثباتِ المُثبَتِ خاصة، وما هو عن قصدِ العموم.

فالجامعُ[٣] الكاملُ يُثبت، وينفي الرسوم[٤]، وإلا لِيطلُبِ الشرائعَ مع

---

(١) التجليات، من التجلي: وأصله من الانكشاف، وقد يكون: ١ ــ بالذات نحو: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢]، أو ٢ ــ بالأمر نحو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وعنـد الصوفيـة: هو ما ينكشـف للقلـوب من أنـوار الغيوب، «التوقيف»: (١٦١).

(٢) الضمير عائد إلىٰ (الحي القيوم) سبحانه وتعالىٰ.

(٣) الجامع من هو في مقام الجمع، وهو شهود الأشياء بالله، والتبري من الحول والقوة، «التوقيف»: (٢٥٢).

(٤) أي: الآثار.

العلوم، فكيف ينفي ما جعله الحقُّ دِلالةً عليه، وطريقاً موصِلاً إليه؟ ففي الحديث القُدسيّ: «كنتُ كنزاً مخفِياً، فأحببْتُ أن أُعرَف، فخلقْتُ خلقاً، فبي عرَفوني»(١)، وفي الآية: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، وفي أخرىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، و: ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾. فكلُّ هذا يدلُّ علىٰ أن الحقَّ لم يخلُقِ الخلقَ عبثاً ولا باطلاً، بل خلقهم ليُعرَفَ بهم، فيعبدوه ويوحِّدوه، وبعدَ نصبِ الدلائل فمنهمُ المرحوم، ومنهم المرجُوم.

والصلاةُ والسلام علىٰ سيّدِنا محمد، الشافعِ المشفَّع يومَ الكلُّ منَ الناسِ لِربِّه يقوم، وعلىٰ آله وصحبه الذين بهم يُهتَدىٰ كالنجوم.

ثم سلامي من قلبِ قلبي، وسُوَيداء لُبِّي، وخالصِ حُبّي، يتصلُ بمن هو مِن خاصَّة صحبي، ومَن له شِربٌ مَرْويٌّ من شِرْبي، وهو الأريب الأديب، الآخذُ من أخيرِ الخيرِ بأوفىٰ نصيب، محمّدُ بنُ أبي بكرٍ باذيب، بوّأه الله منازلَ التقريب، التي مَن نزَلَها فغصنه رَطِيب، وعيشُه خصيب، وهو المخطوبُ من القريبِ المُجيب. ونرجو أن يُكرِمَ مُحبَّنا ويُكرمَنا بما ذكَرْنا، وإليه أشَرْنا، إذ مؤمِّلُه لا يَخيب، بل يوهَبُ كلَّ عطاء، وكلُّ حالاتِه تطيب، وإذا كان الله عندَ ظنِّ عبدِه به، فظنُّنا فيه: أن يُتحِفَنا بقُربِه، ومعرِفتِه وحبِّه، اللهم آمين.

---

(١) قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يُعرَف له سندٌ صحيحٌ ولا ضعيف. وتبعه الزركشي، والحافظ ابن حجر في «اللآلي»، والسيوطي، وغيرُهم. وقال الملاّ علي القاري: لكن معناه صحيح، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: ليعرفوني، كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما. . وهو واقعٌ كثيراً في كلام الصوفية، واعتمدوه. انتهىٰ. من «كشف الخفاء»: (٢: ١٩١).

صدرَتْ هذه الجُمَل، ونحن في ألطافِ من المولىٰ عزَّ وجلَّ، وآمالُنا فيه طويلة، وظنونُنا فيه حسنةٌ جميلة، وإن كنا في شططٍ وغلَط، فهو أهلٌ لأن يغفرَ لكلٍّ منا ما فرَّط فيه وفرَط.

فقد طلبَ بعضُ الأنبياء من ربِّه أن يُريَه رجلاً من أهل النار، فأوحىٰ الله إليه: «أنِ اخرُجْ إلىٰ بابِ المدينة، فأولُ رجلٍ يخرُجُ منها فهو من أهلِ النار»، فخرج إلىٰ باب المدينة وخرجَ أولُ خارجٍ منها فعرَفَه، ثم طلبَ من مولاه أن يُريَه رجلاً من أهـل الجنـة، فأوحـىٰ الله إليه: «أنِ اخـرُجْ إلىٰ بـاب المدينة، فأولُ داخلٍ يدخُلها فهو من أهلِ الجنة»، فدخلها أولُ داخل، فكان هو ذلك الرجلَ الذي كان أولَ خارجٍ بالأمس.

فحارَ ذلك النبيُّ في الأمر من مولاه، بشأن ذلك الحال! فأوحىٰ إليه: «أنّ ذلك الـرجـلَ المُسـرفَ علىٰ نفسِه، بعدَما كان داخـلاً بالأمـسِ إلىٰ تلك المدينة، قـال في نفسِه: ما ذنوبي في مغفرةِ ربي وسَعَتِها؟ ونَدِم علىٰ ما كان منه»، فبعدَما كان من حيثُ العملُ من أهلِ النار، صار بعدُ من أهلِ الجنة، التي هي دار الأبرار! اللهمَّ مغفرتُك أوسَعُ من ذنوبِنا، ورحمتُك أرجىٰ عندَنا من أعمالِنا.

***

فحُسـنُ الظـنِّ مغناطيسٌ كبيـر، وإكسيرٌ خطير، يجعـلُ القليـلَ كثير، وإلا مَن كان قد خـرَجَ عن رِقِّ الاعتبـار، فصـارَ من الأحـرار، لم يلحَـظِ الأسرار، فهذا الذي يُظاهرُه الأبرار، لهذا قال القائل شعراً:

الحَـظِ الأسـرارَ تظفَـرْ　　　إنهـا تخفـىٰ وتظهَـرْ
وإذا مـا كنـتَ غِـرّاً　　　لا تسيءَ الظَّنَّ تخسَرْ[١]

---

(١) الغر: الغافل، أو المغفل.

خـذ يمينـاً خُـذ يمينـاً   عن سبيلِ السوءِ والشرّ
وتعلَّــــقْ وتشــوَّقْ   واطلُبِ الإكسيرَ الاكبرْ
وهـو حُسـنُ الظـنِّ يـاذا   إنــه بــالفتــحِ أجــدَرْ

قال سيد البشر ﷺ: «لو اعتقد أحدُكم في حجَرٍ لَنَفَعه»[١]، فكيـف مِن اعتقـد في بشـر! معنـاه ــ والله أعلم ــ: لنفَعَه اعتقادُه، أن يحصُـلَ مرادُه، وإمدادُه وإسعادُه، وإلا فالحجَرُ لا يزيلُ ضرَر، ولا يجلِبُ ما يسرّ، وما الأمر إلا كما قيل شعراً:

والمرءُ إن يعتقدْ شيئاً وليس كما   يظُنُّـهُ لـم يخِبْ والله يُعطيـهِ[٢]

ومُحِبُّنـا هو حَسَـنُ الاعتقـادِ في السادة الأمجـاد، فبحولِ الله الملكِ الجواد، أنه معَهم في الدنيا والمعاد، اللهم آمين.

***

هذا والمكاتبةُ نقْلُها وصَل، وفيها بعضُ غلط، لعلَّ ترسِلُونَ النسخةَ التي هي كتابُنا، ونُقابِلُها عليهـا ثم نرُدُّ النسختين، كتابتُنـا تبقىٰ عندَكم، والأخرىٰ تقابِلونَ عليها نسختكم، ثم تُرْجِعونَها إلينا، والمقصود الفائدة، التي هي خيرُ عائدة، فمَن فتَّشَ علىٰ الفوائد، المُخدَّراتِ[٣] كالخرائد، لا بد له أن يظفَرَ بها

---

(١) قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»: لا يصح. وقال الحافظ ابن حجر: لا أصل له. وقال ابن تيمية: كذب. «كشف الخفا»: (٢: ٢١٦). ولابن عبيد الله في كتابه «إدام القوت» كلامٌ حول هذا الحديث، وقد شدد النكير علىٰ القائلين به. ولكن كلام والده هنا فيه توجيهٌ جميلٌ لهذا القول علىٰ فرَضِ أنه ليس بحديث.

(٢) للعلامة ابن بنت الميلق، في قصيدته التي مطلعُها:
من ذاقَ طعمَ شرابِ القومِ يدْريهِ   ومَن دراه غدا بالروحِ يشْريهِ
انظر ما تقدم في «الثبت».

(٣) المخدرات: النساء اللواتي في الخدور، أي: الستور، والمراد هنا: التشبيه.

ويحضُرَ أطايبَ الموائد.

ومُحبُّنا هو كذلك، لم يزلْ ينقِّبُ عليها، ويتوصَّلُ إليها، ويخطُب حُورَها، ويبني قصورَها، ويستضيء بنورها، وإن شاء الله يعتلي دورَها، ويتنعَّمُ بسرورها وحبورِها، فاللوذَعيُّ مَن جاهدَ ثم شاهد، فإذا هو داخلَ المدينة ومحيطٌ به من الأعداءِ سورُها! وما ذلك على الله بعزيز.

هذا وصدَرَ مع حاملِ هذا «ختمُ البخاريّ» و«بدايتُه»[1]، لسيدِنا الوالدِ الأبرّ عيدروسِ بنِ عمر، فإنّا طلبناه منه، لكونِنا نقرأه كلَّ سنةٍ في شهرِ رجب، ونختِمُه فيه، والبدايةُ عليها والختمُ عندَه، وقد فعَلَه بقصْدِنا، وفيه السندُ المطلوبُ لكم، انقُلوه وردُّوه[2]، والسلام.

* * *

(١) وهي أدعيةٌ من إنشاء الحبيب عيدروس بن عمر، منها نسخةٌ في مكتبة الأحقاف (بترِيم) برقم (١٨٨٩).

(٢) لم أجد سند الحبيب عيدروس ضمن أوراق الشيخ محمد رحمه الله، لكن عثرتُ على سنده عن طريق أهل تهامة اليمن، فأوردتُه ضمن هذا المجموع.

المكاتبةُ السابعة

ومما كتبه إليّ قولُه:

"بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال ربُّنا في الكتاب المحفوظِ المَصُون: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فإلهامُ الله عبدَه محبةَ الخيرِ وفعلَه، فضلٌ عليه منه ورحمة، لولاه ما انتهَضَ لِفعلِه، ولم يكنْ لديه هِمّة، ولا له إليه عزْمة؛ لأنه كان في حجابِ الظُّلمة، فإذا رأىٰ العبدُ فضلَ الله ورحمتَه مَسوقتَين إليه فلْيفرَحْ بذلك، فإنه من أكبرِ النعم عليه.

وإذا قد مُدِحَ الفرحُ ــ ولكن بهذا الاعتبار ــ فقد ذُمَّ إذا كان بغير مَشهَدٍ من الفعَّال المختار، وقال الله تعالىٰ: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، والذي يرىٰ المِنةَ لله في كلٍّ ما [يظهر][(١)] فرحَه بالله، فهو مأمورٌ به، كما قد ذكَرْناه، وقولُه: ﴿إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، أن المنادي المذكور: هو الإلهامُ بالخير الذي يقعُ في الصدور.

وأيضاً إن المؤمنَ إذا مُدحَ ربا الإيمانُ في قلبِه، وآخرُ مدَحَ آخر،

---

(١) بياض بالأصل، وما بين القوسين زدتُه لاستقامة المعنىٰ.

فقال له ﷺ: «قطعْتَ عنُقَ صاحبِك»[١]، فالمؤمنُ الذي مدْحُه يُزْبي إيمانَه، ما هو إلا ملحوظٌ محظوظ. والذي فيه: «قطعْتَ عنُقَ صاحبِك» هو مرفوض.

***

والإنسانُ قد آتاهُ الله القرآن، وجعلَ له الفُرقان، وأعطاه الميزان، قال تعالىٰ: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، فهذا الميزان ميزانُ الأعمال. ومعرفةُ مُقدَّمِها من مؤخَّرِها، وأفضلِها من مفضولِها، ثم معرفةُ حسَنِها من [قبيحِها]، فالحمدُ لله ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٤ ـ ٥]، كان في كُنهِ العدَم، ثم عقَلَ وتعرَّفَ وتعلَّم وتفهَّم.

وكيف لا وقد قال الربّ: «إنّ الله خلَقَ آدمَ علىٰ صورتِه»[٢]؟ وكلٌّ مِن بنيهِ نسخةٌ من نسختِه، فهو علىٰ هذه الصورةِ المعنوية، فافهَمْ يا أيها المشارُ إليه، فدَيْتُ مَن يفهَم، واتْلُ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ [يونس: ٥٨]، تعلَمْ بعدُ تعلَم.

وأيضاً الروحُ في هذا الإنسانِ هي ما ذكَرْنا، فإنه ليس بالواهي، فالإنسانُ أفضلُ المخلوقاتِ من كلِّ الحيثيات، إذا نظرتَ إلىٰ الأُولَيَاتِ وكذا الأُخْريات، ولكن ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠] بِنسيانِ ربِّ البريات، وإيثارِ المستعجَلات.

---

(١) متفقٌ عليه، ولفظ البخاري (٢٥١٩) عن عبد الرحمٰن بن أبي بكْرةَ، عن أبيه، قال: أثنىٰ رجلٌ علىٰ رجل عندَ النبي ﷺ، فقال: «ويلَك! قطعْتَ عنُقَ صاحبِك، قطعْتَ عنُقَ صاحبِك» مِراراً، ثم قال: «مَن كان منكم مادحاً أخاه لا محالةَ فليقلْ: أحسَبُ فلاناً والله حسيبُه، ولا أُزكّي علىٰ الله أحداً، أحسَبُه كذا وكذا، إن كان يعلَمُ ذلك منه». وهو عند مسلم برقم (٣٠٠٠).

(٢) هو حديثٌ نبوي، وليس قدسياً، وسبق تخريجه وشرح معناه في ص (٣٩٦).

والصلاةُ والسلامُ علىٰ سيدِنا محمدٍ أفضلِ المخلوقات، فقولُنا: «أفضلِ المخلوقاتِ» من المولوداتِ لهذه المذكورات، بل هو أفضلُ كلِّ الكائنات، الملَكيَّات والملَكُوتيات، وعلىٰ آلِه وصحبه مِمَّن لهمُ الأعمال الطيّبات، والهِمَمُ العاليات، وعلىٰ التابعين لهم علىٰ هذا القدَمِ إلىٰ يوم الميقات.

ومنهم مِحِبُّنا المُضمَّخُ بمِسْكِ أهل الله والمطيَّب، وبحولِ الله يُدنىٰ مما دنَوْا إليه ويقرَّب، وإليهم يُجذَب، وأعنيه صالح الأعمال، وطيِّب البال محمدُ بن أبي بكرٍ باذيب، لا زال في دنوٍّ وتقريب، إلىٰ القريب المُجيب، وإذا دعاهُ إلىٰ مكرُمةٍ مّا فهو المجيب، اللهم آمين.

***

كتابُك ــ مُحِبَّنا ــ وصَل، وقولك: «إنها قطعَتْ بك الأسباب، عن الذَّهاب إلىٰ ربِّ الأرباب»، فنقول: لا، بل هي مُنِيلةٌ لكَ إلىٰ مجلس الاقتراب، والحضَرات الرِّحاب، فإنَّ مَن وسَّعَ الله بالَه، وسدَّدَ أعمالَه، لو تناولَ الدنيا بأسرِها [فهي](1) مقرِّبةٌ له، ومنَحَتْه نيتُه الصالحةُ كمالَه.

والأسبابُ اليومَ مأمورٌ بها الإنسان، وإنما عليه فيها الإحسان، فادخُلْ فيها ــ يا مُحِبِّي ــ بالله، تخرُجْ منها بالله، ومَن عندَه مِغناطيسُ الأشياء، صلحَت له الآخرةُ والدنيا.

وحبيبُكَ يطلبُ الدعاء، فإنه خالي الوعاء، ولا له زاد، إلا حسنَ ظنِّه في الكريمِ الجواد!

وكتابُك وصَلَنا من طريق محبِّنا «هادي» بعد العشاء، وقرأناه، ودعَوْنا

---

(١) ما بين القوسين غير موجودٍ بالأصل، وزدته لتوضيح المعنىٰ.

لك بصلاحِ باطِنِك وظاهِرِك، ثم طلَعنا مسجِدَ الجَدِّ «طه»[1] لختْمِه الكبير، وذكَرْناكم باللسانِ والضمير، والله يُجمِّلُنا ويُجمِّلُكم، ويُسعِدُنا ويُسعِدُكم.

والسلامُ التامّ نُخصُّكم به، ونطوي فيه سرَّ الإلهام، معَ الدعَواتِ العظام التَّوامّ، كما ذكَرْنا لكم، وإن شاء الله [تحيا] منا الجُدوب، وتلِينُ منا القلوب، ويطيبُ لنا المأكولُ والمشروب، حتىٰ يحصُلَ لنا المطلوبُ والمرغوب، وسَلِّمْ لنا علىٰ أخيك المُعان[2]، وعلىٰ خاصَّتِك من الأعوان.

الداعي والطالبُ الفقيرُ إلىٰ الله

عبيدُ الله بنُ مُحسنٍ السقاف».

❋ ❋ ❋

---

(١) مسجد «طه»، مسجدٌ معروفٌ في (سيون)، أسَّسه وبناه الحبيب الأجلُّ طه بن عمر بن طه الصافي السقاف المتوفىٰ سنة ١٠٠٧هـ، وجُدِّد بناؤه أواخر القرن الرابعَ عشر، وللعلامة السيد علويّ بن عبد الله السقاف، المتوفىٰ (بمصر) سنة ١٣٩٢، كتابٌ سماه «النص الوارد في تجديد المساجد» ألفه بهذه المناسبة.

(٢) الأغلب أنه يعني: الشيخ عبد الرحمٰن، فقد تكرر ذكره في هذه المكاتبات.

المكاتبةُ الثامنة

ومما كتَبَ إليّ عَزاءً في الأخِ المرحوم عبد الرحمٰن بن أبي بكرٍ[١] رحمه الله قولُه جواباً[٢] للكتابِ مني إليه:

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال مَن أمرُهُ بين الكافِ والنون، في كتابِه المَصُون، المكنون: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

والحمدُ لله علىٰ ما قضَىٰ[٣] من القضاء[٤]، الذي وظيفةُ العبدِ عند نزولِه الصبر، وأجلُّ منه الرضا[٥]. والصلاةُ والسلام على سيدِنا محمدٍ ﷺ

---

(١) كانت وفاته (بعدن) عصر الثلاثاء ٩ ربيع الثاني سنة ١٣١٩، ودُفن بالمُعلاّ (بتشديد اللام): موضعٌ معروفٌ (بعدن)، وهو غيرُ (المعلاة)، فتلك مقبرةٌ شهيرةٌ (بمكة المكرمة)، مقبورةٌ بأعلاها أم المؤمنين خديجةُ عليها السلام، وستأتي ترجمته في آخر هذه «المحاسن».

(٢) أي: فرسالته هذه المضمّنةُ (قوله) هي جواب منه.

(٣) أي: حكم.

(٤) القضاء: إنفاذ المقدر.

(٥) الرضا: طيب النفس بما يفوتها ويصيبها، مع عدم التغيُّر. وعند القوم: سرور القلب بمر القضاء، «التوقيف»: (٣٦٦).

المرتَضىٰ، وعلىٰ آله وصحبه الذين هم [نِعْمَ][١] الأتباع لمشرِّفهم في كل إحجامٍ وإمضاء.

ثم السلامُ الكثيرُ المدَد، الذي فوائدُه لا تُحصَىٰ ولا تُعَدّ، وهي هكذا علىٰ مرِّ المُدَد[٢]، تُهدىٰ إلىٰ محبِّنا ومحبوبِنا المسدَّدِ والمؤيَّد، القائمِ في مقامِه بالواحدِ الأحد، الذي هو حَسَنُ الاعتقادِ في الأمجاد، وعندَه فيهم عظيمُ المشهد، الجمالُ محمّدُ بنُ أبي بكرٍ باذيب، وفَّرَ الله حظَّه والنصيب، من مُوجِبات الإدناءِ والتقريب، وبحولِه وقوّتِه ما وهبَه من النور في باطنِه لا يذهبُ ولا يغيب، بل يتزايدُ وينمو، وغُصنُه إن شاءَ الله بأثَرِ التوحيد واليقينِ رطيب. اللهمَّ آمين.

***

صدرَتْ والفقيرُ مغمورٌ بالأحزانِ والهموم، حالةَ كونِه قائماً ومضطجعاً وحينَ يقوم، وجُلُّ ذلك من ترحُّلِ المشايخِ والخِلّان، والأصحابِ والإخوان، الذين بوجودهم ينتعشُ الْجَنان[٣]، وتزهو بالله الأركان لتكثُّرِ الأنوار، ومحادثةِ الأسرارِ[٤] للأسرارِ، والظواهرِ للظواهر، علىٰ أحسن ما كان من خيرٍ مشتهىٰ، الذي مَطاعِمُه ألوان، ومشارِبُه لا يَعرِفُ معناها البيان، لكونها من الأذواق[٥] التي لا تعبِّرُ عنها لسان.

---

(١) ما بين القوسين زيد لاستقامة الكلام.

(٢) المدد: جمع مدة، وهي الزمان الطويل.

(٣) الجنان، بالفتح: القلب.

(٤) السر: من اللطائف الخمس، وقد تقدم شرح معناه.

(٥) الأذواق، جمع ذوق وهو: عبارة عن نورٍ عرفانيٍّ يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه، يفرِّقون به بين الحق والباطل، من غير أن ينقلوا ذلك من كتابٍ ولا غيره، «التوقيف»: (٣٥٢).

واليومَ ــ يا مُحبِّي ــ انطوىٰ ذلك البِساطُ الذي كان ممدوداً، ومعناه مشـهـوداً، وثمـره موجـوداً، تتـروّحُ بـه الأرواح، وتتنـعَّـمُ بـه الأشبـاح، وتستضـيءُ بأنـواره التي هي كالمصبـاح والصَّبـاح، بل هي أجلـىٰ من ذلك، وأضـوأُ مما هنالك. وما تلكَ الليالي والأيام إلا مُعجَّلـةٌ[1] من جناتِ التكريم والإنعام!

فلمّا أظلَّنا هذا الزمان، الذي هو دَمَان الدَّمَان[2]، غرَّتْنا الفانياتُ التي هي قُرة الأعيان، فصِرنا في نَحْسٍ كثير، وتَكدُّرٍ كثير، وبُسِطَت بعدَ تلك موائدُ الشَّهوات، المُثقِلةُ المُكسِّلةُ عن الطاعات، واشتغفتِ الْجُلُّ بها، وصارتْ هي المقصودات.

وبريقُ هذا المتـاع خطَفَ الأبصـارَ والأنظـار، وبه الكلُّ ضاع، إلا من عصَمَ الله وقليلٌ مَّا هم، والأمرُ في ذلك في اتِّساع.

ومن ترحَّـل إلىٰ الله، ولـم يشهَد هذه الأشياءَ الغيرَ مُرضِيةٍ عندَ الله.. فهـو المسعـودُ الفـائـزُ برضـا الله، ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٧٣]، وأشْهَدَ مقاماً فخيماً، ولكنَّ الأمرَ لله!

وما أرىٰ حالي وحالَ أمثالي، إلا كما قيل:

شيـخٌ كبيـرٌ لـه ذنـوبٌ تعجَزُ عن حملِها المطايا
قد بيَّضَت شعْرَه الليالِي وسـوَّدتْ قلبَه الخطـايـا

يا مُحبّـي ظهـرَ الشَّيب، ولـم يذهَـبِ العَيـب، ولم ندْرِ ما في الغيـب! ويا ليتَنا أشرَفْنا في الجيْب، وتنصَّلْنا من كل رَيب، ما غير نعْمُرُ في هذا الفاني،

---

(١) في العبارة حذف، والتقدير: ما هي إلا معجلة.
(٢) الدمان هو: الدبل أو السِّرْجين، روث البهائم.

ونُصَالي(١) عليه ونعاني، فلو كُلِّفنا ما نحن فيه وعليه لما وجَدْنا متسعاً لغيره:

يا عامرَ الدنيا علىٰ شَيْبِهِ فيكَ أعاجيبٌ لمَنْ يعجَبُ
مـا عُـذرُ مَـن يعمُـرُ بنيـانَـهُ وعمْـرُه مستهـدَمٌ يُخـرَبُ!!

فها نحن ــ يا مُحبّي ــ أهمَلْنا وظيفةَ الوقت، لهذا رُمينا بوصْفِ المقْت، ولكنّا في انتظار الفرج، من رفيع الدرَج، اللهمَّ آمين.

***

هذا وكتابُك وصَل، وفيه الخبَرُ بوفاة منِ اندرَجَ(٢) إلىٰ رحمةِ الله عزَّ وجلّ، محبوبِنا ومحسوبِنا، ومَن هو منّا، المرحومِ برحمةِ الرحيم الرحمن، صاحبِنا «عبدِ الرحمٰن»، فأشجىٰ ذلك الجَنان، وأبكىٰ الأعيان(٣)، ولكن الأمرَ لمن هو كلَّ يومٍ في شان.

رحِمَ الله ذلك الإنسان، وبوّأه فراديسَ الجِنان، وجمع بينَنا وبينَه مع خاصّةِ الأعيان(٤). . اللهمَّ آمين.

ومثله يُبكَىٰ عليه؛ لأنه من زيانِ الزيان، ومن التُّجّار المرْضيِّينَ عند الرحمٰن، يا بُشراه بلقاء مولاه، في برزخِه وبدار الأمان، والموتُ للمؤمنِ تُحفةٌ(٥) أيُّ تحفة، ولمن بعدَه شُغلَة، وللعين طَرْفة.

---

(١) أي: نقاسي.

(٢) المندرج: هو من مات ولم يعقب؛ يقال: درج القوم إذا انقرضوا، وقد يكون في حياة الوالد أو بعده، والأول أكثر شيوعاً عند النسّابين (عمر باذيب).

(٣) جمع عين، وهي الباصرة.

(٤) جمع عين، وهو الرجل الشريف في قومه.

(٥) أي: هدية. وفي «المعجم الكبير» للطبراني (٨٧٧٦)، من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «تحفةُ المؤمنِ الموت»، قال الهيثمي: (٢: ٣٢٠): =

ولكن هذا سبيلُ الدنيا، وسنةُ الله في الأحياء، رزقَنا الله وإياكمُ الصبرَ الجميل، الذي هو نعتُ كل نبيلٍ جليل، وأمّا الحزْنُ المذمومُ فهو صفةُ النساء، ومُحِبُّنا وإخوانُه ـ الجميع ـ وأولادُهم، هم رجال، يتحمّلونَ الأثقال، ويُرجِعونَ الأشياءَ إلىٰ الكبيرِ المُتَعال.

***

وموتُ ذلك الصاحبِ بـ (عَدَن)[١]، هو مقدّرٌ عليه من جزيل المنّ، وفيه خيرةٌ كبيرة، لأهلِ صلاحِ السِّيرةِ والسَّريرة، لا يخفىٰ ها هنا علىٰ مُنوَّرِ البصيرة.

تُوفِّي سيدُنا عمرُ بنُ عبد الرحمٰن البار[٢] في «جلاجل»[٣]، بساحلٍ خالٍ قربَ البحر، فخطَرَ بخاطر مَن حضَر: هٰاهنا يموتُ الحبيب؟ فتمثل سيدُنا عمرُ بهذين البيتين:

لا تقُلْ: دارُها بشرقِيِّ نَجْدِ   كـلُّ بيــتٍ للعـامـريَّــةِ دارُ
ولهـا منـزِلٌ علـىٰ كـلِّ مـاءٍ   وعلــىٰ كــلِّ دِمنــةٍ آثــارُ

إشارةً منه إلىٰ أن معيّةَ الله: الخاصةَ والعامّة، مصحوبةٌ كلَّ إنسان، حيثُما كان، لهذا قال قائلهُم:

ومِـن عجَـبٍ أنـي أحِـنُّ إليهِـمُ   وأسألُ عنهمْ مَن أرىٰ وهُمُ مَعي

= ورجاله ثقات.

(١) (مدينة عدن)، من أشهر البلدان اليمنية والموانىء في جزيرة العرب، تقع علىٰ باب المندب، ملتقى بحر العرب، ذات موقع هام في بلاد العرب.

(٢) توفي رحمه الله ونفع به مسيرَه للحج عام ١٢١٢، وكان معه تلميذه الأنجب الشيخ العلامة عبد الله باسودان والحبيب العلامة عبد الله بن علي بن شهاب. ينظر للمزيد «فيض الأسرار».

(٣) جلاجل: بلدة ساحلية بقرب القنفذة، علىٰ خط سير الحاج اليمني.

وتطلبُهم عيني وهم في سوادِها ويشتاقُهم قلبي وهم بينَ أضلُعِي

فالمَيتُ من حيثُ مات هو في عينِ الرحَماتِ والمُواصَلات، والأقدامُ عليها أحكام، جرَتْ بها الأقلام، وإذا أرادَ الله وفاةَ عبدٍ بمكانٍ حَبَّب له الرِّحلةَ إليه، لكون ذلك مقدَّراً عليه، وهذا أصلَحُ له من تدبيرِه، وأهنأُ له من مرادِه وإشارةِ مُشيرِه، معَ هذا فالشأنُ كما قيل:

إذا ما حِمامُ المرءِ كان ببلدةٍ وعنه إليها حاجةٌ مَّا أتاها

غيرُه:

مشيناها خُطًى كُتِبتْ علينا ومَن كُتِبتْ عليه خُطًى مشاها

وأرزاقٌ لنا متفرِّقاتٌ فمن لم تأتِه منّا أتاها

ومن كُتِبَتْ منيَّتُه بأرضٍ فليس يمُوتُ في أرضٍ سواها

فواجبٌ علىٰ الإنسانِ لزومُ بُدِّه اللازم، من: طُمأنينةِ القلب علىٰ التوجّه، ورؤيةِ الأشياءِ كلِّها للحميدِ المجيد، وأنه مسيَّرٌ فينا ما هو مرادٌ له، جعل الله مرادَه فينا خيراً، آمين.

***

هذا وذكرتَ لنا في كتابِكمُ القراءةَ في «صحيحِ الإمامِ البخاريّ»، فحبَّذلك، ونِعمَ هذا الخيرُ الذي معناه عليك جاري، معَ مُذاكَراتٍ أُخَرَ في العلمِ الشريفِ تُحيي الليالي، فهذا الذي خُلِقْتَ لحملِ أمانته، إذ طالبُ العلمِ لا تُكتَبُ عليه خطيئةٌ في حياتِه، كما هذا حديثٌ[١] عن خير مخلوقٍ لله، من أخصِّ بريّاتِه ﷺ.

---

(١) رواه الترمذي في «جامعه» (٢٦٤٨) من حديث سَخْبرةَ عن النبي ﷺ قال: «من طلَبَ العلمَ كان كفّارةً لما مضىٰ».

وذكـرْتَ نكتُـب لك «وصية الشيخ ابنِ حجـر»[١] لتلميذِه ابن رعيّة الشحري[٢]، فإن شاء الله نحصّلُها ونرسلُها إليك.

***

والدعـاءُ لك مبذول، ومنك مسؤول. وكتابُنـا هـذا لك ولأخـوَيْك الميمونَين الأمثلَين: عمرَ وأحمد، ومَن تعلّقَ بكم من صاحبٍ وولد، وليجهَدْ كلٌّ منكم فيما يُحمَدُ في الغد، وبه هنا وهناك يَسعد، وما ذاك إلا التحليةُ بصفةِ التقوىٰ، سِراً ونجوىٰ، معَ قمْع الأهواء، وإماتةِ النفسِ وإسقاطِ كلِّ دعوىٰ، فبهذا يندحِرُ اللعين، وبنارِ أسفِه يُكوىٰ، وفّقنا الله وإياكم لما يحبُّ ويرضىٰ، اللهم آمين. ويُسلِّمُ عليك ولدُنا وصاحبُنا.

الداعي لكم والطالبُ منكم الفقيرُ إلىٰ الله

عبيدُ الله بنُ مُحسنِ بنِ علَوي السقاف».

* * *

(١) هو الإمام أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي المكي، الفقيه الشهير، مولده (بمصر) سنة ٩٠٩، ووفاته (بمكة المكرمة) سنة ٩٧٤، وهو صاحب «تحفة المحتاج» الكتاب الشهير في فقه الشافعية، شرح به منهاج الطالبين للإمام النووي، وهو معتمَد أهل (حضرموت) في الفتوىٰ.

(٢) هو الشيخ الفقيه سعيد بن يعقوب بالرعيّة، المتوفىٰ سنة ٩٧٢، كان متولياً التدريسَ والإمامةَ في جامع الشحر. أخذ عن الشيخ ابن حجرٍ مكاتبة، وهذه الوصية توجد عند أحفاده بالشحر، ومنها نسخٌ متفرقةٌ في (حضرموت).

المكاتبةُ التاسعة

ومن مُكاتباتِه:

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالىٰ في كتابه، الذي مَن عَلِمه وعمِل بما دعا إليه فاز منه بإسعادِه، هنا وفي مَعادِه، والمقولُ هو: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩].

فاللطيف تعريفُه: أنه إذا دعاه عبدُه لبّاه، وإن قصدَه آواه، وإن أحبّه أدْناه، وإن أطاعه كافاه، وإن أغضبه عافاه، وإن أعرَضَ عنه دعاه، وإن أقبلَ إليه هداه، وإن عصاه راعاه. فمَن هذه صفاتُه معَ عبادِه، فالأحسَنُ منهم إلاّ أن يسعَوْا في مُـرادِه، إذ هو باسـطٌ عليهـم يدَي ودادِه، فله الحمدُ إذ هو سبقَتْ رحمتُه غضبَه، فطوبىٰ لمن تأهّبَ للقاه بحسن استعدادِه، فهذا له من غاية طَوْلِه يومَ إشهادِه.

والصلاةُ والسلامُ علىٰ سيدِنا محمدٍ ﷺ، الداعي إلىٰ طريقِ رشادِه، وعلىٰ آله وصحبه الذين جاهدوا في الله حقَّ جهادِه.

وبعد:

فيُهـدِي الفقـيرُ إلىٰ عفـو ورحمةِ ربِّـه القديرِ خفـيِّ الألطـاف، عبيـدُالله ابـنُ مُـحسـنِ بـنِ سـقـاف، مسـنـونَ السـلام الـذي يـتـواصـلُ بـه أهـلُ

الإسلام[١]، فإذا أهداه الأخُ منهم إلىٰ أخيه، فقد أمّنَه من جميع المذامّ، معَ صلتِه إياه بجزيلِ الإنعام، الذي هو ليس كالمشروبِ ولا هو كالطعام، بل هو أشهَىٰ منهما عند من يعرف المُدَام، التي يذكرونَها أهلُ الله في نَثرِهم والنّظام.

وإذا أجابَ الأخُ أخاه كذلك، كان له ما هنالك، والبادي له أكثر، إذ هو السابقُ بهذا المفخَر، وإن كان المسبوقُ أتىٰ بما هو الواجب، ليعرِفَ أن السابقَ هو الذي يفوزُ بأسنىٰ المطالب، والأعمالُ بالنيات، كما جاء عن خيرِ البريّات ﷺ. وبها التفاضلُ في الأعمالِ الصالحات، وبها تتفاوت الدرَجاتُ في الجنات.

والمُهدَىٰ إليه ذلك بهذه المعاني التَّوَامِّ، وغيرِها مما هيَ في حيّزِ الانكِتام، هو: مُحبُّنا في الله، ولله، ومن أجل الله، الجمالُ محمدُ بنُ أبي بكرِ باذيب، وهبَه الله فتحَه القريب، وأجزَلَ له منه النصيب، وأدناه إلىٰ مجالِي الأُنسِ به والتقريب، وإيانا، آمين، اللهمَّ آمينَ يا قريب.

***

صدَرتِ الأحرفُ ونحن ومَن لدينا الجميعُ بعافية. المرجوُّ أنك وأخاك الأبرّ، والحبايبَ والمُحبينَ في حالِ أسرّ، وكُلاًّ من المذكورين في مُتاجرة الكريم البرّ، في عشاياهم والبُكَر، وفيما بينَهما، وخصوصاً وقتَ السحر، وقتَ تنزُّلِ الكبير المكبَّر، فإن المستيقظَ فيه يحصلُ علىٰ شيءٍ عنه لا يعبَّر، الله أكبر، الله أكبر.

والموفَّقُ أمرُه ميسّر، وأمرُه مدبّر، وتَسوقُه العنايةُ الأزليةُ إلىٰ ما هو أجلُّ العطاءِ وإلىٰ المقام الأفخر، بحيثُ لا يرىٰ إلا الله الكريمَ البرّ، في هذا الوجودِ الذي هو في الحقيقةِ ظلٌّ وأثر.

---

(١) تقدم في الرسالة الثانية ذكر شيءٍ من معاني السلام.

ولكنّ أحولَ العينين، يرىٰ الواحدَ اثنين، ولا ثانيَ مع الربِّ الصَّمَداني، غير أنّ الحجابَ لما كَثُفَ وقعتِ التوهُّمات والتشكُّكات، وإلا فالله كما جاء: «كان الله ولا شيءَ معَه»[1]، وهُو الآن علىٰ ما عليه كان، والسِّرُّ لا يُبان، والله المستعانُ في كل شان، وعليه التُّكلان.

وأنت ــ يا محبُّ محمدُ ــ اللّهَ اللّهَ في بذلِ المجهود، في رضا المعبود، فبه تبلُغُ مقامَ الشهود، الذي هو المقصود. والدعاءُ لك مبذول، ومنك مسؤول، وعلىٰ الله فضلاً القبول.

وحبيبُك[2] يزيدُ عليه الكلام، ولا عتبَ ولا ملام، فالصَّدرُ ملآن، ولكن ما هناكَ ــ يا مُحبّي ــ مَن له آذان، يُسقِطُ ما سمِعَه إلىٰ الجَنان، فإن الزمانَ أهلُه اشتغلوا بما هو في الحقيقة أقذَرُ من الدِّمان، وعسىٰ اللطفُ من اللطيف، ولولاه لكان أشدَّ مما نحن فيه وعليه.

والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاته»

---

(١) أصله عند البخاري (٦٩٨٢)، من حديث عمرانَ بن حُصينٍ قال: إني عندَ النبيِّ ﷺ، إذ جاءه قومٌ من بني تَميم، فقال: «اقبَلوا البُشرىٰ يا بني تَميم»، قالوا: بشَّرْتَنا فأعْطِنا، فدخَلَ ناسٌ من أهل (اليمن)، فقال: «اقبَلُوا البُشرىٰ يا أهلَ اليمنِ إذ لم يقبَلْها بنو تميم»، قالوا: قبِلْنا، جئناك لِنتفَقَّه في الدين، ولنسألَك عن أولِ هذا الأمرِ ما كان؟ قال: «كان الله ولم يكنْ شيءٌ قبلَه، وكان عرشُه علىٰ الماء..» الحديث.
وفي روايةٍ «معه»، وفي رواية «غيرُه»، قال المُلّا عليٌّ القاري في «المصنوع»: (١٣٢): «ثابتٌ، ولكن الزيادة وهي: «وهُو الآن علىٰ ما عليه كان»، من كلام الصوفية». انتهىٰ. وقال في موضعٍ آخر: «وقد نصَّ ابنُ تيميةَ كالحافظ العسقلانيِّ علىٰ وضعِها ــ أي: الزيادةِ ــ، وإنْ صحت.. فتأويلُها: أنه تعالىٰ ما تغيَّرَ بحسَبِ ذاتِ الكمالِ وصفاتِ الجلال، عمّا كان عليه بعدَ خلقِ الموجودات». انتهىٰ ملخصاً، «كشف الخفا»: (٢: ١٨٩).

(٢) يعني: نفسه.

المكاتبةُ العاشرة

وكتَبَ إليّ أيضاً:

الحمدُ لله، الطريقُ واضح، والعطرُ فائح، ولا بقِيَ إلا مَن ينشَقُ تلك الروائح، فإن كان له أحدٌ ناشقاً، وبما ندعو إليه عاشقاً، سمِع ذلك الصَّادح[1]، فاستجابَ له مِن قريب، فإذا هو بالبابِ واقفٌ وعما خرَجَ منه نازح، فلا شكَّ أن يفتَحَ لهذا الكريمُ الفاتحُ المانح، إذ هو الدَّاعي إلىٰ ما فيه لعبده أكملُ المصالح، وما به يكون بنَعْتِ الرابح.

والصلاةُ والسلامُ علىٰ سيدِنا محمدٍ ﷺ، الذي له المولىٰ في سورة ﴿نٓ﴾ بأكمل الثناءِ مادح، وعلىٰ آله وصحبه من الذين كلٌّ منهم بسِيمَاه عليه لائح، وعلىٰ التابعين لهم بإحسانٍ ممن لم يكن غيرُ المولىٰ في قلوبهم جائلٌ وسانح، ومَن إذا رآهم الجهولُ الجَموحُ رجَعَ عن جُمُوحِه فإذا هو لربه مُصالح.

ثم السلام بأتمِّ مَبنىٰ، وأكمل معنىٰ، يُهدَىٰ إلىٰ مُحبِّنا الأدنىٰ، صالحِ السرِّ والإعلان، وميمونِ الحركاتِ والسكناتِ دنيا وأديان، الداخلِ في حَيْطةِ مَن لهمُ البشرىٰ، في الدنيا والأخرىٰ، ولهمُ المعاملةُ منه بجزيل الامتنان،

---

(١) يقال: صدح الديك، إذا صاح.

ومنهـم معه بالإحسان في كلِّ شـان. وأعنـي به مُحبَّنـا المُصـان، ومحبوبَنا المعان، محمدَ بنَ أبي بكرٍ باذيب، جعله الله من المحبوبينَ الموهُوبينَ لطائفَ التقريب، وخصوصياتِ كلِّ ذي صدرٍ رحيب، وله منه أوفرُ الحظِّ والنصيب، وإيانا، آمينَ يا سميعُ يا مجيب.

***

صدرَتْ هذه الأحرف، والفقيرُ ومَن تعلَّق به في حالٍ ـ إن شاء الله ـ حالٍ[١] وقال[٢]، محمولةٌ عنه الأثقال، ومنزولُه بمولاه الكريمِ المتعال، الذي يعطي من سأله بلسانِ الاضطرار والانكسار ما فوق الآمال، هنا وفي المآل، وها نحن لجأنا إليه، وتوكّلنا في جميع أمورِنا عليه، وعلمُه بالحال يكفي عنِ السؤال، والسؤالُ منّا له عبوديةٌ تُصحِّحُ ما هو ماكنٌ بالبال، فلهذا البركةُ[٣](؟) من خاصّةِ العباد، الدعاء إلىٰ الله مع الابتهال.

والعبدُ ليس له غنًى عن مولاه، بل في كلِّ ما نفَسٍ هو فقيرٌ إليه، متأثرٌ بصفاته وأسماه، يُطالعُها بقلبٍ حاضر، وفكرٍ ثاقب، يفهَمِ الأفعالَ والمصادر، لا يُشبِّه، ويُنزِّه، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، وهذا التنزيه، ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وهذا التشبيه، وهذه الآيةُ جمعَتِ العقيدةَ المُفيدة للفقيه.

والتوحيدُ بحرٌ عميق، لا يَلِجُـه إلا من سـلَكَ في مَحَجَّةِ[٤] الطريق، وكنَسَ سرَّه من مُوجِبات التعويق، فهذا ـ والله ـ الصدِّيق، الذي عرَفَ الحقَّ

---

(١) من التحلي بالخصال المحمودة.

(٢) من القِلىٰ، وهو: البعد، أي: البعد عن الصفات المرذولة.

(٣) كذا بالأصل.

(٤) المحجة، بالفتح: جادّة الطريق.

الحقيق، ألبَسَنا الله ملابِسَ تقواه، وأغرَقَنا في بحور واحديّتِه وأحدَيّتِه، لِنلقُطَ جواهرَها، ويفوزَ كلٌّ منا بمُنتَقاه، آمين.

***

هذا وكتابُكم وصَل، والحمد لله ـ يا أخي ـ وشكراً لله كثيراً، لساناً وضميراً، من حيث أنّا بالنسبةِ لما عليه أهلُ الزمانِ في قناعة، في المطاعمِ والمشاربِ والملابس، وعسىٰ الله يوفّقُنا للطاعة ويُسلِّمُنا من الإهمال والإضاعة.

وقد قيَّضَ المولىٰ القدير، للعُبيدِ الحقيرِ الفقير، صاحباً[1] يُعينُه علىٰ المطالعات والقراءات، وأما وَلدُنا عبدُ الرحمن فهو ذو نَباهةٍ وذكاء، ولكنْ قَد يغلِبُ عليه طبعُ أهلِ الزمان، فأسألُك يا مُحبِّي أن تدعوَ لي وله ولصاحبي، كما هو لك ولكل أصحابِك.

* * *

(١) هو الشيخ محمد بن شيخ الدثني، تقدم ذكره.

المكاتبةُ الحاديةَ عشرة

ومما كتَبَ به إليّ:

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله المُسبَّحِ بكُلِّ لسان، الموجودِ في كلِّ مكان، المعبودِ طوْعاً وكرْهاً في كلِّ آن، الذي خلق الأكوان، وجعلَ خُلاصتَها هذا الإنسان، وخصَّه بالمعرفةِ التامةِ وعلَّمه البيان، وأعطاه الفهمَ في القرآن، ثم منَحه الميزان، فبه تَميَّزَ من بينِ الأقرانِ والإخوان، وبه رفعَ قدرَه وعظَّم له الشان، وكان مشهدُه[1] هنا بالجَنان، وبَعْدُ من حيثُ لا يُكيَّفُ بالأعيان.

فما أجَلَّ حالَ من وسِعَ قلبُه الرحمن، وُسْعَ معرفةٍ، هذا الإيمان! فهذا لا يكون مشهدُه في كل شيءٍ إلا الحنّانَ المنّان، مع إعطاءِ الموجوداتِ حقَّها ورُتبتَها التي رتَّبَ الله عليها جملةً من فروع الإسلام والإيمان والإحسان.

ومن كان كذلك، مع ربِّه المالك، فهو بوصفِ الجمْعِ والفَرْق[2]،

---

(١) أي: مشهد العبد لربه تعالى. (هنا) أي: في الدنيا.

(٢) الفرق: ما نُسب لك، والجمع: ما سُلب عنك. ومعناه: أنّ ما يكون كسباً للعبد من إقامة وظائف العبودية، وما يليق بأحوال البشرية فهو فرْق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معانٍ، وابتداء لطائفَ وإحسانٍ فهو جمع، ولا بد للعبد منهما، ومن لا =

والبقاءِ والفناء[١]، وليس هنا تضادٌّ، ويخالفُ ما في الإمكان، فإنّ مَن شرَحَ الله صدرَه بأنوار الإيقان، يجمَع بين الأضدادِ[٢] صورة، إذ لا أضدادَ حقيقةً إلا عندَ الواقفينَ مع الظواهر، الذين لم تَنفُذْ منهمُ البصائرُ إلىٰ حَسِين المعاني.

إلا أن السادةَ الصوفية علىٰ حالين:

* منهم: من كثُرَت عَطِيته، فضاقَ بها عطَنُه[٣] فاشتدّت بليّتُه، فكان من أمرِه ما كان، حيث بثَّ الأسرار التي من حقِّها أن تُصان، ولا تذاعَ فيصيرَ صاحبُها مُهان، فهذا قالُ[٤] مَن هذا حالُه:

سَقَوْني، وقالوا: لا تُغَنِّ، ولو سقَوْا جبالَ حُنينٍ ما سَقَوْني لغنَّتِ[٥]

فهذا عبدٌ حقّانِيٌّ[٦] غلَبت عليه الأحوال، فهو معذورٌ بنصِّ القرآن.

* ومنهم: مَن حكَم علىٰ الأحوال، وغلبَها وقهرَها بكلِّ حال، لِمَا أعطاه مولاه من الهيمنة عليها والسُّلطان، وواضحِ البرهان.

فالأولُ إذا أنكرَ عليه الفقيه، الذي لم يعرِفْ دَليلَه، ولم يسلُكْ سبيلَه، لم يخرُجْ عن شريعة سيدِ ولد عدنان ﷺ.

= تفرقةَ له لا عبوديةَ له، ومن لا جمع له لا معرفةَ له، فقول العبد: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾، إثبات للتفرقة بإثبات العبودية، وقوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ طلب للجمع، فالتفرقة بداية الإرادة، والجمع نهايتها، وقيل: الجمع: الإشارة إلى الحق بلا خلق. «التوقيف»: (٢٥٢)

(١) تقدم شرح المقصود بهما.

(٢) الأضداد: الأمور المتخالفة، التي لا يمكن اجتماعها عقلاً.

(٣) أي: خلقه.

(٤) أي: قول.

(٥) البيت للمجنون؛ مجنون ليلى.

(٦) أي: متكلمٌ في الحقائق.

فدليلُ من عاسَفَتهمُ الأحوالُ(١) واضح، ومَن ملكُوها(٢) دليلُهم أوضَح، والكلُّ منهم أعيان، وجِلّتُهم يغترفونَ في بحر المصطفىٰ ﷺ، فمنهمُ الصافي ومنهمُ الأصفَىٰ، ومنهم الوافي بعهدِه ومنهمُ الأوفىٰ.

والأمرُ يدورُ علىٰ إحكام البيان، وهو متابعةُ سيدِ الإنسِ والجانّ، وأفضلِ مَن كان، جعل الله حِرْفتنا متابعته، ونَعْتَنا محبّته، ولا حرَمَنا في الدارَين رؤيتَه، صلىٰ الله وسلَّمَ عليه عِدَادَ الذرّات التي هي في ضمن الزّمان.

***

ثم إني أُهدي تحيّاتي الساميات، بمعانيها ومبانيها التامّات، مُطيَّبَةً بالأرواحِ(٣) النّدِيّاتِ والمِسْكيّات، صادرةً أولاً منَ الجَنان، ثم ثانياً هي منَ اللسان، تصِلُ بهداياها المنوَّعة، وفوائدِها المجتمعة، إلىٰ محبِّ السادةِ المطهَّرين من كل شيْن، كما يُقرَأُ في تنزيل ربِّ العالمين(٤).

وأعني بهذا «المُحبِّ» محسوبَهم ومنسوبَهم، ومحبوبَهم ومخطوبَهم، محمدَ بنَ أبي بكرٍ باذيب، زيّن الله باطنَه وظاهرَه بخاصّةِ التقوىٰ، وجعل ساحةَ قلبِه برياضِ العلم يزهو ويَطيب، ونفسَه إذا دُعِيتْ لما فيه صلاحُها مُسرعةً تُجِيب، اللهمَّ آمين.

صدرَتْ هذه الأحرفُ والفقيرُ ــ ومن لاذَ به، وجدَّ(٥) مِن صَحْبِه ــ بعافيةِ

---

(١) وهم الأوّلون.

(٢) وهم الطائفة الأخرىٰ.

(٣) أي: الروائح.

(٤) في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(٥) أي: استجدّ.

جسميّـة، مع العافية ــ بحول الله ــ القلبيـة، المرجـوُّ أنك ومَـن لديك بأتمِّ العافيتين[١]، وأكملِ المعنيين والمسرَّتين، وأنك ومَن تعلقَ بك في زيادةٍ من الخيرات، المؤديةِ إلىٰ الزياداتِ المحبوبات، هنا وفيما هو آت.

جعلَ الله السَّمَاعاتِ مسَرَّات، ومُعلِناتٍ بحصولِ البشـارات الحسّيات والمعنويّات، فإنّ ظنَّنا في ربِّ البرياتِ: أن يرفَعَ لنا الدرجات، ويهَبنا أجزلَ العطِيّات، هنا وبالديار الأخرَويّات. بانُعظِمُ ــ يا مُحِبَّنا ــ المسألة، فالله كريم؛ يهَبُ مَن يسألُه فضلَه، ويعطيه نيْلَه، ويُصلِحُ بصلاحِه أولادَه وأهلَه، آمينَ اللهمَّ آمين.

***

هذا ويا أخي؛ الوقتُ مريض، ولا نفَعَ في أهليهِ صريحُ الموعظة بعد التعريض، ولا نَثرُ الكلام ولا القريض[٢]، فالسَّيرُ من بني الزمان القَهْقَرىٰ، وهَمُّهمُ الغالبُ: الجمْعُ لأمِّ حَبَوْكَرَىٰ[٣]، فبالاشتغالِ بها نسُوا الله والدارَ الآخرة.

قـد عـمَّ أهلَ الوقتِ ــ إلا من ندَر ــ الصمَمُ معَ البَكَم، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، إذ هم[٤] مُكلَّفون، وهي[٥] ــ من حيث الظاهر ــ لا تَعلَم.

***

(١) أي: الجسمية، والقلبية.

(٢) القريض: الشعر، وهو نظم الكلام.

(٣) الدنيا.

(٤) أي: أهل الوقت.

(٥) أي: الأنعام.

فلئن كان في الأممِ السابقةِ المسْخُ قِرَدةً وخنازير، ففي هذه الأمةِ مسخُ القلوب وقسوتُها، بحيث لا تَلينُ عند التّذكير.

ومن علامات مسْخِ القلوب:

* التثاقُلُ عن أمور الخير.

* والكراهيةُ لها.

* والكسَلُ عنها.

* والسآمةُ لها.

إذا قيل لأحدِنا: افعلْ كذا، واترُكْ كذا، فيرىٰ أبوابَ الخيرِ أثقلَ من حمْلِ الجبال، ويرىٰ القيلَ والقال، والخوضَ فيما لا يعني أشهَىٰ له من السلسال، ويثقُلُ عليه الجلوسُ في المسجد، والقيامُ في اللَّيال.

فالقلوبُ ــ كما ذكرنا ــ قاسية، والأعضاءُ عاصية، وقد أجمَعَ أهلُ الله علىٰ أن القلوبَ إذا قسَت، والأعضاءَ إذا عصَت، أنّ معالجتَها بالأدوية المركّبةِ والمُفرَدات، من الفروض المُتَحتِّمات. وقد عكس أهلُ الزمان الشان! فعالَجوا الأبدان، وترَكوا معالجةَ الأعضاءِ العاصيةِ وأمراضَ الجَنان[1].

ولكنْ، لو رأىٰ أحدُنا بعين البصيرة ما الأوْلىٰ بالمعالجة؟ لَعرفَ الحال، وصلَحَت منه السيرة، وصفَت له السَّريرة، ولكن أين اليومَ مَن يُحَدِّقُ النظَر، ويُعمِلُ الفِكَر، فيما قلبُه به يتنوَّر؟!

بل صاحبُ الكشفِ اليومَ يرىٰ اللعينَ الخناس، راكباً علىٰ ظهور الناس، كما يركَبُ أحدُنا الدابةَ ويسوقُها إلىٰ حيث شاء! فهو لا ينزِلُ عن ظهورِهم حتىٰ

---

(١) قيل هذا الكلام قبل قرنٍ من الزمان، فكيف لو رأىٰ القائلُ حالَ أهل زماننا هذا؟!

في دُجَىٰ الأغلاس، إلا عند الصلواتِ ونحوِها من القُرُبات، إن كانت مع حضورٍ وإخبات[١]. وإن كانت مع الغفلات، والأفكارِ المُرْدِيات، فهو يعلوهم في جميع الحالات!

حفِظَنا الله ومحبِّنا من اللَّعين، الذي هو عدوُّ الدين، وحمانا من متابعةِ الأهْوِية، والنفوسِ المُطْغِيةِ المُلهِية، وسيَّرَنا في منهاجِ المتقين، اللهمَّ آمين.

***

هذا ويا مُحبِّي، أخوك في حيرةٍ مما يرىٰ ويسمَع! نُطالعُ كُتُبَ القومِ ونحن بمعزِلٍ عنها، لا نتوبُ من المخالفات، ولا إلىٰ الله نرجع!

فيا محبِّي ادعُ لي وأدعو لك، فإنّ الأخَ إذا دعا لأخيه بظهرِ الغيْب، يستجيبُه الله فيه من غير شكٍّ ولا ريْب. فنِعْمَ الصِّلةُ الدعاءُ للإخوان، بصلاحِ الأديان والأبدان، والمعاشِ الذي يتقوّىٰ به الإنسان، علىٰ طاعةِ الرحمن.

والحمدُ لله علىٰ فضلِه المتَوالي، ونعَمِه الّتي علينا لا تزال، سائلينَ منه حُسنَ القبولِ والإقبال، في أيامِنا والليال، اللهمَّ آمين.

ويُسلِّمُ عليكم ولدُنا، وصاحِبُنا، وسلِّموا علىٰ سادتِنا وأحبتِنا.

الداعي لكم والطالبُ منكم

عُبيدُ الله بنُ مُحسنِ بنِ علَوي السقاف

محرَّرٌ شعبانَ سنةَ ١٣٢٠هـ».

---

(١) أي: خشوعٍ وخضوع.

المكاتبةُ الثانيةَ عشرة

ومما كتَبَ به إليَّ أيضاً:

«الحمدُ لله، وليس نحمَدُه إلا بحمده، وليس ـ أيضاً ـ نقصِدُه إلا بتحريكِه إيّانا لما يريدُه منا، ونُثْنِي عليه بلسانِ مجْدِه، فإنا كلُّنا آلة، تحتَ أحكامِ الجلالة، فمنّا مَن هداه لما يحبُّه وبرضاه، ومنا من حقَّتْ عليه الضلالة، فهو بنعْتِ تماديهِ في حجابِ بُعدِه وصدِّه.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، فيُقبِلُ إليه بكُنهِ قصْدِه، وإن وقَعَ منه خلافٌ بحكم القضاء، فيغفِرُ لخطإه وعمْدِه. إذِ الغايةُ[١] لا تضُرُّ صاحبَها الجناية، بل يُوفِّقه مولاه، بحبه إياه، ليبلُغَ رشده. والمعوَّقُ عن الطريق، لا يفيدُه البيانُ والتحقيق، بل ينفِرُ قلبُه منه، ويبوءُ بعنادِه وجحْدِه.

سائلينَ مِن مولانا: أن يُعظِم في الدارين قِرَانا[٢]، ويُتحِفَنا فيهما ببُشرانا، ويهَبَنا عنايةً من عنده، اللهمَّ آمين، بجاهِ سيدنا محمَّدٍ ﷺ رسولِه وعبدِه، صلىٰ الله عليه وسلَّمَ وعلىٰ آله وصحبه من بعده.

***

---

(١) أي: غاية الأمر أنه.. إلخ.

(٢) القِرىٰ: ما يقدَّم للضيف من الطعام، والمراد هنا: هِباتُه وأعطياتُه.

ثم سلامُ الله الأتَمّ، بمعناهُ الأخصِّ والأعم، الجاري علىٰ لسان عبدِه المفتقـرِ إلىٰ رحمتِـه هنا وثَمّ، عبيدِ الله بنِ مُحسنِ بن علَوي بـن سقاف، يُهدَىٰ بكثـرة، المرّةَ بعدَ المرة، والكرَّةَ بعدَ الكـرة، إذ المعانِـي لا تُحصَـر، بل لها الإطلاقُ دنيا وآخرة. لهذا شرَعَه الله عندَ اللقاء، وفي إرسال الرسائل بين ذوي التُّقىٰ، وهو كذلك من الله وملائكتِه في دار البقاء، دارِ السلام.

فمـا أسعَدَ مَن أطْلعَه الله سرَّه، فهو به يمشي ويصِلُ بواسطتِـه إلىٰ كلِّ حضرة، وكلُّ ذرةٍ في الوجود فهي للعارفِ حضرة، إذ هي مُعلِنةٌ بالأحَدِيّة، يسمَعُها هذا العارفُ بلسانِ المقال، فذرّاتُ هذا الوجودِ كالمناظِرِ له، بواسطتها يرىٰ ما وراها الذي هو المقصود. فما من ذرّةٍ مَلَكيةٍ إلا ولها ملَكوت، يشهدُه أهلُ الخصوصية.

فالعارفُ المذكورُ ما يخفىٰ عليه خافية[1]، حتىٰ ما كان في السماواتِ العالية، قال سيدُنا عمر بن طٰه البار[2] لسيدنا الحبيبِ عبد القادر بن محمدٍ الحبشي[3]: الحمدُ لله؛ أخوكَ عمرُ الآنَ أطلَعَه الله علىٰ سبعينَ عالماً، الدنيا والآخرةُ عالمٌ واحدٌ منها!

---

(١) أي: مما أذِنَ الله به بالاطلاع عليه، وكلٌّ له مقام معلوم.

(٢) أحد كبار العارفين، وهو الحبيب عمر بن طه بنِ الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البارّ، توفيِّ بالقرين بعد سنة ١٢٠٠، كان من ذوي الشأن الكبير، خاملاً ومجهول القدر، له عددٌ من المؤلفات منها: «خاطفة القلوب إلىٰ علام الغيوب»، منه نسخةٌ (بتريم) رقمها (٢٧٨٦)، و«طب القلوب» رقمه بها (١٧٣٤).

(٣) هو الحبيب الوليّ الصالح، العالم العامل، عبد القادر بن محمد بن حسين بن زين بن علويّ الحبشيّ، جده حسينٌ أخو الإمام أحمدَ بن زين، توفي المترجَم بالغرفة سنة ١٢٥٠، كان صاحب كرامات ومكاشفات، وحالٍ عظيم، له «مكاتبات» توجد عند بعض أحفاده.

فما لِلْعارف لا يُقدَّر، ولا يُضبَطُ ولا يُحصَر، ولو فتحْنا هذا البابَ لضاقَ علينا مدخلُ سلوكِه، لكونِنا غيرَ مُلوكِه، وهذا النّزرُ اليسير، من التطفّلِ علىٰ حالِ كلِّ كبير، ولكنّ اللسانَ قد يطغَىٰ، ويساعدُه القلمُ والبَنان، وبهذا يُبغىٰ، والله لنا يُسامِح، ويسترُ قبائحَنا والفضائح.

فإنّا لولا عنايةُ الكريم الغفار، لأيقنّا أنّا من أهلِ النار، لِمَا عندَنا من الأوزار، صغارٍ وكبار، ولكن نُرَجّي أنفسَنا السيئةَ الفِعال، غَفْرَ الكبيرِ المتَعال، وإلا فنحن ماش[١]، ولا عندَنا من الأعمال قشاش[٢]، إلا أنّا قد صاحَبْنا الكرام، ونظَرُونا ـ إن شاء الله ـ بنظرِهِمْ: الخاصَّ والعام، فعسىٰ تحتَ المسابيطِ طعام[٣]، نتمتَّعُ به في ليالينا والأيام، ونحن إلاّ كما قيل:

إذا تفكَّرْتُ في ذُنوبي ... خِفتُ علىٰ قلبيَ احتراقَهْ
لكنّه ينطفي لَهِيبي ... بذِكْرِ ما جاءَ في البِطاقَهْ[٤]

---

(١) أي: ما شيْ باللهجة اليمنية = لا شيء، يريد: ما نحن إلا كلا شيء، تواضعاً منه.

(٢) جمع قشة.

(٣) مثلٌ يضرب للشيء الذي لا تأتي منه فائدة، والمسابيط: جمع مسباط، وهو عصاً غليظة يُدَقُّ بها الحب من قمح وذرة عند الحصاد لفصل القشر عن الحب.

(٤) البطاقة، يعني به: حديث البطاقة الشهير: وهو ما رواه أحمد: (٢: ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم: (٢: ٢١٦)، وغيرُهم، من حديث عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله سيُخلِّصُ رجلاً من أُمتي علىٰ رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامة، فينشُرُ عليه تسعةً وتسعينَ سِجِلاً، كلُّ سِجلٍ مثلُ مدِّ البصر، ثم يقول: أتُنكِرُ من هذا شيئاً؟ أظَلَمَك كتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: أفَلَكَ عُذر؟ فيقول: لا يا ربِّ. فيقول: بلىٰ، إنّ لك عندَنا حسَنة، فإنه لا ظُلمَ عليك اليوم. فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها: «أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاّ الله وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه»، فيقول: أحضر وزنك، فيقول: يا ربِّ، ما هذه البطاقةُ معَ هذه السِّجلاّت؟ فقال: إنك لا تُظلَم». قال: «فتوضَعُ السِّجلاّتُ في كِفّةٍ والبطاقةُ في=

وعندَ مثل هذا قد بَرَدَ الجأش(١)، ويزولُ نوعٌ من الإيحاش، والآن إذا ذكَرْنا السلف، وخوفَ كلٌّ مما اقترف، اعترافاً منهم، وإلا فهم بالله أعرَف، كِدنا نُسحَقُ ونُمحَق؛ لأنّ ما عندَنا من الخِلاف محقَّق.

***

والماضونَ نعتُهمُ البكاءُ والإشفاق، و﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، من خوفِ حسرةِ السِّباق والفِراق. ومع هذا فلهم أعمالٌ لأمثالِنا اليومَ لا تُطاق، منها: صيامُ الهواجرِ، وقيامُ الدَّياجر، والتلذُّذُ بِمناجاة الكريمِ الخلّاق، يحيُونَ الليل ويكرهون تقضِّيَه، لِمَا يجدون فيه، فرُؤاهم(٢) صفرُ الوجوهِ من السهر، غُمْصُ العيونِ من العِبَر(٣)، قد نَحُلوا من خوف الجليل، حتىٰ كأنّ الكلَّ منهم عليل.

أفتُراهم لم يعرِفوا سَعَة الفضل؟! حاشا وكلا، بل هم به منّا أعلم، ولكنهم بَقُوا في جانب السلامةِ علىٰ خوفٍ وطمع، ورجاءٍ وفزَع، وفي غايةٍ من الورَع، لهذا حباهُم المولىٰ بهباتِه ومشاهداتِه، وفتَحَ عليهم بفتوحاتِه ومُنوحاتِه.

ونحن ـ أهلَ الزمان ـ كأنّا عرَفْنا ما لم يعرِفوه، واطّلعنا علىٰ ما لم يطَّلعوه. فنقولُ مع العِصيان: ربُّنا كريمٌ رحيمٌ رحمٰن! فهذا صدق، ولكنْ رحْمتُه يخصُّ بها المحسنين، وغَفْرُه للتائبين. فأمانيُّ المغفرةِ ثقّلتنا، وعنِ

= كِفّة، فطاشَتِ السِّجلّاتُ وثقُلَتِ البِطاقة، فلا يثقُلُ معَ اسمِ الله شيء». قال أبو عيسىٰ: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

(١) أي: الضمير.

(٢) أي: أشكالهم ومناظرهُم المرئية.

(٣) أي: العبَرات، جمع عَبرة، بفتح العين.

المقصودِ بطَّأتْ بنا، اللهمَّ خلِّصْنا مما نحن فيهِ خلِّصنا، آمينَ يا ربَّنا.

***

ثم إنّا نسينا السلامَ عند فتحِ هذا الكلام، ولكن لا مَلام، حيث القلبُ مُمتَلِئٌ بما فيه من الأُوام[1]، فالله [يتكرَّم] علينا بنظرة، تزيلُ هذه العُسرة، وتزيحُ هذه القَسْوة، آمين.

ثم ذلك السلامُ يُهدَىٰ إلىٰ مُحبِّنا ومحبِّ السادة الكرام، الداخلِ في حِمَاهم في كلِّ مقام، محسوبِنا الفَخْرِ محمدِ بن أبي بكرٍ باذيب، أصلحَ الله شأنَه، وثقَّلَ بالحسنات ميزانَه، وأعطاه فُرقانَه، وزيّن بالتقوىٰ المحضَةِ جَنانَه وأركانَه، وقوّى فيها بُنيانَه، وشَمِل بهذا الصلاحَ أنصارَه وأعوانَه، اللهم آمين.

صدرَتْ ونحن بعافية، ونسألُ الله أن ينشُلَنا من الأوحال، ويرقّيَنا إلىٰ مراقي الرجال، إياك وسائرَ أهلِنا وأهلِك وكلَّ العيال.

وكتابُك وصَل، وعرفْنا ما فيه، فرَّحَك الله بفوْقِ ما ترجوه، هناك وهنا، ويسَّر أسبابَك، وفتَحَ أبوابَك، وأجزَلَ ثوابَك، آمين.

ويُسلِّم عليك ولدُنا وصاحِبُنا، وسلِّمْ علىٰ جميع الإخوانِ والمُحبِّين.

***

(١) الأوام: العطش.

المكاتبةُ الثالثةَ عشرة(١)

ومن مُكاتباتِه قولُه:

الحمدُ لله الّذي سَبَقت محبتُه محبةَ عبدِه، ورضاه رضا مَن يسبّحه بحمدِه، ورحمتُه سبقَت غضبَه، لطفاً منه بمُوحِّدِه، في سيْرِه إليه وقصدِه، وكلُّه من عندِه، للّهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ في صدور العبد ووِرْدِه(٢)، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، في مُرِّ الحال وشهْدِه.

والصلاةُ والسلام علىٰ سيدِنا محمدٍ ﷺ، صاحبِ الرِّياسةِ الكبرىٰ، في الدنيا والأخرىٰ، الذي الكلُّ راجُونَ جميلَ رِفْده(٣)، وعلىٰ آله وصحبه الذين مجدُهم من مجدِه، وعلىٰ التابعينَ لهم بإحسان، ممن وفَّىٰ كلٌّ منهم بعهدِه، وعلى مَن خلَفَهم كذلك، في جميع المناحي والمسالك، فمشىٰ إثْر أولئك، فكان في غايةٍ من اجتهاده وجِدِّه، حتىٰ وصل إلىٰ ركْبِهم، وشرِبَ نَهْلاً وعلاًّ من شِرْبِهم، وسلَّ من التقوىٰ سيفاً لا يماثل في حُسنِه وحدِّه.

ومنهم ــ بحول الله وقوته ــ مُحِبُّنا الأحب، الصادقُ في جميل مشهدِه، وحُسن معتقَدِه، المكتسِي بخلِع أهل الله، السابغةِ لباطِنه وجسدِه،

(١) لم تؤرخ، ومن تعزيتِه للشيخ محمدٍ في والدته، نعلَم أنها كُتبت سنة ١٣٢٢.
(٢) الصدور: الذهاب. والورد: الإياب = العودة.
(٣) الرفد: العون والعطاء والصلة.

الجمالُ[١] محمدُ بنُ أبي بكرٍ باذيب.

عليـه سلامي الذي فوائـدُه نوامـي، وقـدرُه سامـي، يتصلُ بـه قائمـاً ومضطجعاً، وحيث يطمئنُّ في مقعدِه، ليفُوهَ بالعلمِ النافع، حين ينصِبُ كريمَ عُمُـدِه[٢]، في بيته أو مسجـدِه، فيفيـدُ الطالبَ الراغب، ويُدخِلُه تحـت لواء عِقْـدِه، فينفـعُ الكلَّ بإفادتِه، ويرجِعُ المدْبِـرُ عن صدِّه، اللهـمَّ آمين، يا ربَّ العالمين.

* * *

صدرَتْ هذه الأحرفُ ونحن ـ الجميعَ ـ بعافية، ونسألُ الله تمامَها، ودوامَها، وشكرَها، فإنّا في تقصيرٍ كبير، عن شُكر نِعَمِ الكبير، ولا ننتهي عن الذنـب: صغيرِه والكبير، ولكنّ حُسـنَ ظنِّنـا في مولانا جميل، وأملُنا فيه طويل، أن يعكسَ القضية[٣]، ويمُنّ علينا بما فوقَ الأُمنيّة، لصغيرنا والكبير. اللهم غُفراً، اللهم ستراً، في الدنيا والأخرىٰ، ممن تَجرأ علىٰ جَنابِك يا ربَّ الوَرَىٰ، وأتىٰ بصنوف الزرا، فرحمتُك واسعة، وحضراتُها للكلِّ جامعة.

* * *

أتىٰ طائرٌ إلىٰ حضرةِ المصطفىٰ ﷺ، وفي فمِـه قليـلُ طِين، فصفَّرَ في حضرةِ الرسول الأمين ﷺ، فسُرّ بذلك سيدُ الأولين والآخريـن ﷺ، ثم بشَّرَ الجالسين. فقيل له في ذلك، فقال ﷺ: «إنّ هذا الطائرَ قال في صفيرِه: جئتُ لأَسُدَّ بما في مِنقاري منَ الطِّينِ بحرَ القُلْزُم[٤]، فلم أقدِرْ علىٰ ذلك، فكذلك

---

(١) الجمال: لقبٌ يطلق علىٰ كل مَن اسمُه محمد، فيقال: جمال الدين محمد.

(٢) أي: في الوقت الذي ينصب فيه أعمدةَ علمِه الكريم.

(٣) أي: الشأن الذي نحن بصدده، وهو: قضية التقصير من العبد في حق مولاه سبحانه.

(٤) هو الاسم العربي القديم للبحر الأحمر، قيل: نسبة إلى (قليزمة)، مدينة قرب =

ذنوبُ أُمتِـك في جانـبِ سَعةِ الرحمة، لا تكـون شيئاً»(١)، فسبحانَ المقتدرِ المالك!

* وكانـت عجوزٌ تدورُ أيامَ حياتِها تسألُ الناس، وكلٌّ منهم يقولُ لها: علىٰ الله(٢)، فلمّا ماتتْ رؤيتْ في المنام، وسألها الرائي عن حالها، فقالت: قالت لي ملائكةُ ربِّ العزة: ماذا جئتي به؟ فقلت لهم: يقولونَ لي هكذا، وأنا في عمُري أُدفَعُ عن الأبواب إلىٰ هذا الباب، والآنَ ما جئـتُ بشـيء، وما أنا إلا طالبـة، والفقيرُ إذا جاءَ إلىٰ بيت الملِكِ لا يقال له: ما جئت به؟ بل يقال له: ما تريد؟ فنادى مُنادٍ أنْ: خلُّوها فإنها صادقة.

وقريبٌ من هذه الحكاية ما حُكِيَ عن أبي يزيدَ في رؤيا منامية، لا نُطوِّل بذكْرها.

* * *

وحَبيبُكَ قامَ عندَه حالُ خوفٍ كبير، ولكنّه يتسلّىٰ بمثلِ هذا ليخِفَّ ما في الضمير. وإلا فإن تسألْ عن حالِ حبيبِك فأعمالي أعمىٰ لي، وأفعالي أفعىٰ لي(٣)، وحالِي ـ يا أخي ـ مريرٌ غيرُ حالي، ووِعَايَ ما هو إلا خَالي، وبالِي

= السويس في مصر، والأفصح: أنه مشتق من القلزمة، وهي ابتلاع الشيء والتهامه، لأنه يلتهم من ركبه، وفيه كان غرق فرعون وآله. «لسان العرب» (قلزم). اهـ. (عمر باذيب).

(١) لم أقـف علىٰ تخريـجٍ لهـذا الحديـث. وهو يشبـه أحاديـث القُصّاص الموضـوعة المختلقة، والله أعلم.

(٢) بتقدير مبتدإ محذوف، أي: رزقُك علىٰ الله.

(٣) هذه الألفـاظ التي سيذكرها كلها متجانسـة، أي: تحتـوي علىٰ جناسٍ تامّ، كقوله: أفعالي أفعىٰ لي.. إلخ. =

كما الشَّنِّ[١] البالي، ولكني أطلبُ مولايَ فضلَه الدائم المتوالي، يشملُني به وصحبي وأهلي وعيالي، اللهم آمين، يا كبيرُ يا متعالي.

فحبيبُكَ من حيثُ مهماتُ دينِه، وصحةُ يقينِه، ليس هو فيها علىٰ ثبات، ولكني قد جالستُ أهلَ النظَرَات، وبحولِ الله لا أُخيَّبُ منها حياةً ومَمات، إلا أني مرتقبٌ ظهورَ العلامات، وإن شاء الله وهي تلوحُ في الخيال، وتبدو في المقال، حقَّقَ الله ذلك لي، ولمن هو لي يُوالي، آمين.

وأما من حيثُ الأسبابُ المعاشيّة فإنا ــ إن شاء الله ــ كما قيل:

قَنَعْتُ بالقُوتِ من زمانِي ... وصُنتُ نفسي عن الهوانِ
لا ينبغي أن أرَىٰ بعيني ... مكان مَن لا يرَىٰ مكاني
لي ــ قبلَ أنَ أموتَ ــ رزقٌ ... لو جَهِدَ الخلقُ ما عَداني
فاستَغنِ بالله عن فلانٍ ... وعن فلانٍ وعن فلانِ

فالحمدُ لله علىٰ كلِّ حال، والمكالِفُ[٢] عليه، وعليه حطُّ الأثقال، فكلُّنا له عيال[٣]، الله يرزُقُنا الطاعةَ والقناعة، والعفافَ الذي هو أجلُّ بضاعة. والآنَ الزمانُ ــ يا مُحبّي ــ شديدٌ وعسير، والقانعُ فيه حقير، عند الكبيرِ والصَّغير، ولكنه لا يضُرُّه ذلك، إذا كان في طاعةِ اللطيف به والخبير.

***

وأنت ــ مُحبَّنا ــ نرجو أنك معمِّرُ الأوقات بالطاعات، خصوصاً في

---

(١) الشَّن: الجلد اليابس؛ القربة القديمة.

(٢) أي: الأمور التي كُلِّفنا بها.

(٣) أي: هو يعُولُنا سبحانَه؛ لأنه المتكفل بالرزق، وفي الحديث الصحيح: «الخلْقُ عِيالُ الله، وأحبُّهم إليه أنفعُهم لِعيالِه».

شهر الخيرات والمَبَرّات، وعسىٰ العودةُ فيه علىٰ أحسنِ الحالات.

وأيضاً، لَمَحْتَ إلىٰ الشكوىٰ ممن ينقِمُ عليك، فلا تبالِ بما وصَلَ من كلامٍ إليك، فكيف لا يحسدُك حاسد، وأنت في مقام العلم الشريف، تُفيده كل طالب، وترُدُّ به كل شارد.

وتسلَّ ــ أخي ــ بمثل قول القائل:

لا أشتكي زمَني هذا إلىٰ أحد ... وإنما أشتكي من أهلِ ذا الزَّمنِ
همُ الذئابُ التي تحتَ الثيابِ، فلا ... تكُنْ إلىٰ أحدٍ منهم بمُرتكِنِ
قد كان لي كَنْزُ صبرٍ فاضطُرِرتُ إلىٰ ... إنفاقِه في مُداراتِي لهم.. ففَنِي
وقد قرأتُ أعاجيبَ الزمانِ، فما ... سَمِعتُ فيها بِحُرٍّ غيرِ ممتَهَنِ

واشكُرِ الله إذ كانتِ الأذِيّاتُ بلاغات[١]، ليست فعليّات، وإنما عليك بِحُسن المداراة والصبر، إن ثَمّ جُرْآت[٢].

وقد قلنا لك: تسَلَّ بهذه الأبياتِ من حيثُ الشِّكاية، فإنك كما تشكو أنت فقد سبقَك مَن شكىٰ بأعظمَ مما شكيتَ. أمَا سمِعتَ أنَّ هذا القائلَ فَنِيَ صبرُه في مُداراةِ الناس!

وما أكثرَ اللّهُ في كتابه العزيزِ من ذِكر الصَّبر[٣] إلا لكون الإنسان ــ وخصوصاً المخصوص[٤] ــ سيُؤذىٰ، وخصوصاً: أخصاصَ الخصُوص، فاصبِرْ، وصَابِرْ، ورابِط[٥]، فهي لك نِعْمَ الضوابطُ والروابط.

---

(١) أي: بالسماع، وتناقل الكلام، لا بالفعل.

(٢) أي: إن كان هناك تجرؤٌ منهم علىٰ جنابك.

(٣) تكرر ذكر الصبر في القرآن الكريم بمشتقاته في (١٠٤) مواضع.

(٤) أي: صاحب الخصوصية.

(٥) أخذاً من قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ=

ووفاةَ(١) الوالدةِ(٢) رحمها الله، وقد رتَّبْنا لها الفاتحة(٣) بالمغفرة لها من ربها، والدعاءُ منك مطلوب، كما هو لك مبذول.

من الفقير إلىٰ الله

عبيدِ الله بن مُحسن بن علَوي».

* * *

= تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

(١) منصوبٌ علىٰ المفعولية، والعامل فيه فعلٌ محذوفٌ تقديره «ذكرت».

(٢) هي المرأة الحرة الصالحة: شيخةُ بنت محمد بن علي بن مبارك أم (الإخوة الأربعة)، ، توفيت (بشبامَ) عصرَ يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان المعظَّم سنة ١٣٢٢هـ.

(٣) أي: قرأنا الفاتحة المعظمة بنية غفران ذنوبها، وقد روي عن فقيه الحرم المكي الإمام عطاء بن أبي رباحٍ قوله: «إذا أردتَ حاجةً فاقرأ بفاتحة الكتاب حتىٰ تختمها، تُقضىٰ إن شاء الله» أخرجه بسنده يوسفُ بن المبرد في «جزء الفاتحة»: ص(١٧).